تشرين الأول 2016

أثر العولمة الاقتصادية على القيم:

دراسة في تحولات مجتمع الاستهلاك واتجاهاته

(مع إشارة خاصة الى العالم الاسلامي)

المركز الإستشاري
للدراسات والتوثيق

أثر العولمة الاقتصادية على القيم:

دراسة في تحولات مجتمع الاستهلاك واتجاهاته

(مع إشارة خاصة إلى العالم الاسلامي)

د. عبد الحليم فضل الله*

2016/10/15

* رئيس المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق

فهرس المحتويات

مدخل:..... 3

القسم الاول: الولادة الجديدة لمجتمع الاستهلاك..... 7

أولًا- المسار المتقلب للعولمة على ضوء التنابذ بين القوى الرافعة والقوى الكابحة:..... 7

ثانيًا-النمو غير المتساوي: 10

ثالثًا- التنازع والتفاعل بين الوجوه الثقافية والاقتصادية للاستهلاك 14

رابعًا - جدل الحداثة وما بعدها: وتصدعات الذوق الفني..... 17

تسليع الثقافة 19

خامسًا- تحول المنتجات الثقافية وتغير أسواقها 21

الإبداع وثورة المعلومات والتكنولوجيا: من سوق العرض والطلب إلى سوق الاعجاب!..... 23

هل تعد العولمة الاقتصادية بيئة مناسبة لانبعاث الثقافة؟ 24

القسم الثاني: في الطبيعة الثقافية للعولمة واشكالياتها..... 25

أولًا: مجتمع الاستهلاك والمجانسة الثقافية..... 25

نقاش إضافي: من ثنائية التجانس واللاتجانس إلى الهجانة الثقافية 29

ثانيًا: العلاقة اللاتزامنية بين الثقافة والعولمة: 31

ثالثًا: الدين والعائلة أمام تحديات العولمة: مفارقة الصمود والجمود في تجربة العالم الاسلامي 32

القسم الثالث: انعكاسات العولمة على البنى الاجتماعية والقيم السياسية: حدود التأثير والبدائل..... 36

اولا: الصدمة التكنولوجية وفجوة التكيف الاجتماعي: 36

ثانيًا: المنطق الاخلاقي للعولمة: هل تشجع العولمة القيم السياسية الإيجابية؟ 37

الحرية والاخلاق: 37

التعددية والتنوع والتسامح:..... 39

ثالثًا: هل يمكن انتاج ثقافة استهلاكية بديلة؟..... 42

خلاصة 44

المصادر والمراجع..... 46

مدخل:

يتساءل نيال فيرغسون بفخر في كتابه الحضارة: الغرب وباقي العالم "ما هو الشيء المميز في ازيائنا الذي يجعل الشعوب الأخرى غير قادرة على مقاومتها؟ فقبل قرن واحد من الزمن تقريبًا، بدت صورة العالم بعدسة آلبرت خان شديدة التنوع، لقد انطلق هذا المصرفي الفرنسي سنة 1909 في مشروعه الضخم في "جردة فوتوغرافية لأرشفة الكوكب، كما سكنها وطورها الانسان في بداية القرن العشرين. نجح خان في جمع 72 ألف صورة ومائة ساعة من التصوير السينمائي، فوثق طيفًا واسعًا من تصاميم الثياب والموديلات، التي تبدأ من الصين وشرق آسيا ولا تنتهي بالصحارى الغربية مرورًا بزعماء القبائل في البلاد العربية[1]". ولمن يرغب بتصفح هذا المعرض الهائل على شبكة الانترنت سيعثر على خليط من المشاهد لمحاربين بدائيين في الغابات القصية وبائعين في أحياء ضيقة، ومزارعين ينقلون الحنطة وأزواج من عائلات ارستقراطية يمثلون امام الكاميرا برزانة ووقار[2].

بعد مرور عقود قليلة من الزمن، فقد مشروع خان واقعيته. صار الناس يرتدون أزياء متشابهة في معظم الاحيان: الجينز، الاحذية الرياضية المريحة، الكنزات القطنية ذات الاكمام القصيرة، ..ولم يعد الأمر مقتصرًا على "الطبقات الراقية"، بل تعداه إلى الطبقات الأخرى، التي تقف مستلبة أمام سلسلة تتسع باستمرار تبدأ بالموسيقى وأفلام الحركة والتشويق، ولا تنتهي بالأطعمة السريعة المتميزة بخلطاتها السرية والجذابة.

يدعي فيرغسون أن المجتمع الاستهلاكي هو أحدث ابتكارات الغرب، التي مكنته من تجاوز بقية العالم، متسائلًا بسخرية مبطنة عن السبب الذي جعل الاتحاد السوفياتي، الذي نافس في السباق الى الفضاء، "عاجزًا عن تقليد قطعة ثياب بسيطة جذبت فئات واسعة من السكان". وهو ما قام بفعله بكل بساطة شخصان عاديان عام 1873 هما ليفي شتراوس وجاكوب دافيس، اللذين صمما ما صار يعرف لاحقًا بالجينز كرداء مناسب لعمال المناجم[3].

---

[1] نيال فيرغسون، الحضارة.. كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟؛ بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، 2014، ص 306.

- نيال فيرغسون (1964-): مؤرخ بريطاني معروف ذو توجهات محافظة. استاذ في جامعة هارفرد. نال العديد من الجوائز على اعماله التي ركزت على التاريخ الاقتصادي والامبراطورية البريطانية.

[2] www. Albertkhan. Co.uk/

[3] لقد كانت ملاحظة ثاقبة إشارة فيرغسون الى ان وليي عهدين ملكيين احدهما من اليابان والاخر من ويلز كانا يرتديان ثيابًا متشابهة تنتجهما شركة واحدة (هنري فورد وشركاه) في احد الاحتفالات الرسمية عام 1921، انها اشارة ذات دلالة على قوة التوجه العالمي المبكر

إن التأنق على طريقة الغرب ليس أمرًا يوميًا وروتينيًا عابرًا. يكتسي ذلك رمزية فائقة، عندما يترافق مع نبذ شبه تام للتراث المحلي الذي يستمد جماليته من التفاعل المادي والثقافي المتراكم بين الانسان والبيئة المحيطة به.

فما الذي دفع العالم نحو هذا التغريب المتسارع والمبكر؟

لقد اوجدت الثورة الصناعية، التي انطلقت في بريطانيا أواخر القرن الثامن عشر مناخًا مناسبًا لزيادة كميات الانتاج، ولا سيما انتاج الملبوسات القطنية، وخفض اسعارها، الى حدود أصبحت معه بمتناول معظم الطبقات الاجتماعية. بيد ان اتساع نطاقات الانتاج Mass Production استغرق قرنًا من الزمن، ما بين ظهور الآلة البخارية التي اطلقت الثورة الصناعية الأولى، ونشوء ظاهرة الاستهلاك الجماهيري الواسع التي اتسمت بها الثورة الصناعية الثانية.

ويتميز عصر الاستهلاك عن غيره بسِمة فريدة هي التنميط، الذي حرّر الاسواق من التبعية المباشرة للمنتج. إن امرًا بسيطًا للغاية هو ايجاد مقاسات معيارية للاجسام[4] ساهم في إحداث ثورة على صعيد صناعة الثياب، فلم يعد الزبون مضطرًا مثلًا للجوء الى خياط ماهر ليصمم له بذلة على قياسه. مع ذلك إن ثورة الانتاج والمقاييس لم تكن لتجدي نفعًا لولا زيادة الطلب على هذه السلع المصنوعة بملايين القطع المتماثلة.

لقد ساهمت عوامل متداخلة، اقتصادية واجتماعية وثقافية، في خلق الطلب على منتجات "التغريب" ولوازمه: الاعلانات المدفوعة، الانتلجينسيا المتعلمة في الغرب أو في مدارس غربية، البيروقراطيات الهائلة المرتبطة بالاستعمار، ونشر وعي نخبوي قائم على التمايز، تمايز كتبت كلماته بلغة رمزية قوامها سلع وخدمات مبهرة.

ثمّ إن تضخيم الاستهلاك صار طوق النجاة الذي لا غنى عنه لانتشال الرأسمالية من نزعتها الانكماشية على المدى الطويل. ففي سياق التطور الاقتصادي تزيد متوسطات الدخل ويرتفع مستوى المعيشة، ويزيد معهما الميل الحدي للادخار، وهذا معناه خفض النمو من خلال سحب قيم متزايدة من الناتج إلى خارج الدورة الاقتصادية. ولا يمكن تفادي ذلك دون دفع الناس إلى الانفاق دون هوادة، في مجالات تبتعد شيئًا فشيئًا عن حاجاتهم الأساسية وضرورات حياتهم.

نحو التغريب بتسارع مدهش. فقبل ثلاثة ارباع القرن من هذا التاريخ، كانت اليابان بلدًا منطويًا على نفسه تقريبًا، قبل ان تجبره مدافع السفن الغربية على فتح ابوابه امام الاستيراد والتصدير.

انظر:م. ن. 339- 368.

[4] اجريت في عامي 1939- 1940 دراسة في اميركا من اجل تحديد احجام النساء، شاركت فيها 1500 امرأة ونشرت نتائجها رسميًا في دراسة تحت عنوان "مقاييس النساء لتصاميم الثياب."

وردًا على سؤال فيرغسون: إن فشل المعسكر الشرقي في مضاهاة مجتمع الاستهلاك الغربي، لم يكن سببًا رئيسيًا في تسريع انهياره، صحيح ان التخطيط المركزي في زمن السلم- على حد قول فردريتش فون هايك- لا يسعه توقع الاذواق المتنوعة للمستهلكين، وكان قاصرًا عن تحقيق آمالهم ورفع مستوى رفاهيتهم، إلّا ان الحياة المحاطة بالتقشف القاسي أحيانًا، لم تمنع ذلك المعسكر في بعض أوقات القرن العشرين من دغدغة آمال فئات اجتماعية عريضة في أوروبا نفسها.

لا تستحق التجربة الاشتراكية الثناء لسبب بسيط، هو انها خسرت معركة التنازع من اجل البقاء، وفشلت في إقامة نظام عادل ومستقر، على ارضية الجمع بين القوانين المستمدة من حركة التاريخ والطوبى المنتظرة في المستقبل، ومع ذلك يُذكر لخططها الخمسية التي توسطت الحربين العالميتين أنها أحدثت ثورة صناعية هي الاسرع في التاريخ، في سيرورة منفصلة عن الطلب الاستهلاكي الفردي.

وهناك أمثلة عدة على إمكانية إحداث نهوض اقتصادي، دون التخلي عن الانضباط الاستهلاكي. لا تزال الصين تفعل ذلك منذ ربع قرن، وهي التي يقارب معدل الادخار فيها نصف الناتج في مقابل نسبة ادخار لم تتعد أحيانًا اثنين بالمائة في الولايات المتحدة الأميركية. الجمهورية الاسلامية الايرانية هي المثال الأحدث على ان من الممكن ولوج ابواب التصنيع المتاخر، دون التخلي عن نمط حياة يتوافق مع قيم الدين وتوجهات الشريعة واستلهام الايمان الروحي والسماوي في بناء مؤسسات أرضية ومادية.

سنحاول في الفقرات الآتية التعامل مع الاشكالية الرئيسية المرتبطة بانبثاق المجتمع الاستهلاكي والتي يمكن اختصارها بالسؤالين الآتيين: هل يعد تضخم مجتمع الاستهلاك من عوارض العولمة الاقتصادية التي لا يمكن تجنبها؟ وهل انّ انتشار قيمه وثقافته متلازم مع الحداثة وما بعد الحداثة؟ وما هي التحولات العميقة التي طرأت على ظواهر الاستهلاك التي تكتسب أكثر من ذي قبل طابعًا شعبيًا واسعًا؟

الفرضيات التي سنعمل على اختبارها في هذا النص هي وليدة النقاش النقدي الذي يدور ويتكثف بشأن مجتمع الاستهلاك، ويتغذى من حقول معرفية واختصاصية متعددة. وبالاستناد إليه نفترض انّ المجتمع الاستهلاكي هو حصيلة سياسات مقصودة مثل الانفتاح التجاري والسياسات الاقتصادية والمالية والضريبية التي تسببت في زيادة اللامساواة، أكثر مما هو نتيجة سيرورات

تاريخية وتحولات اجتماعية غير متحكم بها، مع الأخذ بعين الاعتبار التحول في ظاهرة الاستهلاك نفسها التي صارت تكتسب سمات ما بعد حداثوية اكثر منها حداثوية.

نفترض أيضًا وجود ترابط بين العولمة الاقتصادية والتحولات الثقافية والقيمية ذات الصلة بنزعة الاستهلاك، لكن هذا الترابط هو في مرحلة الصعود وليس في مرحلة الهبوط، ففي هذه الأخيرة يتراجع الانفتاح الاقتصادي في الوقت الذي تواصل فيه نتائجه الثقافية بالاتساع.

لقد ترك فرض التغريب الثقافي على المجتمعات، ندوبًا عميقة في وجدان أمم كثيرة ولا سيما في العالم الاسلامي. في التجربتين الايرانية والتركية حرك فرض النمط الغربي على المجتمع ردود فعل قوية. كان ذلك سببًا من أسباب قيام الثورة الاسلامية في ايران. وفي تركيا ولّدت العلمنة العنيفة والفظة التي فرضها مصطفى كمال اتاتورك أزمة هوية لم تتخلص منها الى الآن. يروي أورهان باموك؛ الكاتب التركي الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2006، فصولًا من هذه الازمة على ألسنة شخصيات روايته "ثلج". ترسم مصائر الشخصيات وحواراتها، ومن بينهم صديقه الشاعر "كا"، خطوط تشققات الهوية التركية وتشظياتها بين العلمانية والدين، وبين الشرق والغرب، والتي توصلها الى القنوط. باموك كما يظهر في رواية سابقة (اسمي أحمر) هو ناقد عميق للتكوين الثقافي المغلق للمجتمع التركي في القرون الوسطى، ومع ذلك لم يتردد عن الاعتراف -روائيًا- بأنّ القطيعة القهرية مع التراث هي إحدى بوابات الجحيم.

القسم الاول: الولادة الجديدة لمجتمع الاستهلاك

أولًا- المسار المتقلب للعولمة على ضوء التنابذ بين القوى الرافعة والقوى الكابحة:

يتضمن القرن العشرين في ربعيه الأول والأخير تاريخان لانبثاق العولمة الاقتصادية. فصلت بينهما سنوات طويلة من الحمائية وتدخل الدولة وخطط مركزية ثقيلة الوطأة. تنشأ العولمة الاقتصادية التي يمكن ايجازها بتكثيف التبادل الدولي وتقليص القيود، من تضافر ثلاثة عوامل: التقدم التكنولوجي المرتبط بالثورات العلمية، وارتفاع الانتاجية وزيادة مداخيل الافراد على نحو يجعل التجارة ممكنة ومربحة، ويجعل هذه الأخيرة قادرة على تغذية الاستهلاك المتضخم، إلى جانب وجود دولة و/ أو كتلة قوية ترى أن من مصلحتها ان تدفع تحرير العلاقات الاقتصادية الدولية قدمًا إلى الأمام. وهذا يفرض على الدول الأكثر قوة وتنافسية أن تتبع سياسات معقولة ورشيدة وان تكون مستعدة لدفع الاثمان اللازمة لإنجاح مسارات العولمة.

يصعب ان تستقر هذه العوامل لمدة طويلة من الزمن، بسبب الفشل في عولمة نظام المصالح الاقتصادية عالميًا، والتجاذب الحاد والدائم بين العقلانية والانانية الاقتصاديين، فغالبًا ما تفوز الأنانية في العلاقات بين الدول وفي داخلها، فتهيمن الأقلية الأكثر نفوذًا وثراء على عملية اتخاذ القرار.

على ان العولمة ليست عنصرًا مستجدًا، كانت بريطانيا هي السباقة الى إطلاق هذا المسار خلال القرن الثامن عشر، نظرًا لقدراتها التنافسية التي جعلتها آنذاك الدولة الأكثر استفادة من ثمار تحرير التجارة، ومن مبادئ الفكر الاقتصاد الكلاسيكي الذي تعود أبوته إلى آدم سميث أحد أبنائها[5]. لكن هذا المسار شهد هبوطًا، مع بروز الدولة القومية، قبل أن يستأنف صعوده في بداية القرن العشرين، بعدما شهد العالم تكاملًا على صعيدين: تقارب المسافات بفعل تطور وسائل النقل والاتصال والانخفاض الكبير في تكاليفها[6].

---

[5] للمزيد عن أثر المصالح الاقتصادية للأمم على تطور الفكر الاقتصادي انظر:
جون كينيث غالبريث؛ تاريخ الفكر الاقتصادي..الماضي صورة الخاصر-ترجمة أحمد بلبع؛ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 261؛ سبتمبر 2000.

[6] في عام 1907 بلغ مجموع حمولة سفينة موريتانيا على سبيل المثال اربعة وستين ضعفًا مقارنة بحمولة السفينة سيريوس عام 1838، مع انّ قوة دفع محركاتها كانت اكبر بـ219 حصانًا لتكون أسرع بثلاث مرات. وكانت كلفة ارسال طن من المنتوجات القطنية بالسكك الحديدية مسافة 30 ميلًا من مانشستر إلى ليفربول تساوي 8 شلنات عام 1870، الا أن ارسال البضائع نفسها مسافة 7250 كلم الى بومباي لم تزد عن 30 شلنًا بعد اربعة عقود. كما زادت سرعة نقل المعلومات بفعل تقدم الاتصالات من 3.8 أميال في الساعة عام 1857 إلى 246 ميلًا عام 1891.
المصدر: فيرغسون؛ الحضارة؛ م.س؛ ص: 337-338

وما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، حصلت هجرات كثيفة ما بين القارات شملت مئات ملايين الاشخاص، وتنقلت الرساميل بحرية بين الدول، وطبع التغريب الثقافي بطابعه أنماط حياة افراد وطبقات اجتماعية في مزيد من الامم.

في أواسط القرن العشرين حصل تباطؤ جديد في محركات العولمة. الكتلة الاشتراكية صارت مسؤولة عن ربع الانتاج العالمي تقريبًا، وزاد ثقل كتلة عدم الانحياز في النظام العالمي، وأدى التنافس الآيديولوجي بين المعسكرين إلى انتشار التوجهات الكينزية، وتقدمت الرأسمالية الاجتماعية إلى الصدارة في الدول الرأسمالية لإرضاء العمال والبرجوزيات الصغيرة، وانتشرت السياسات الحمائية التي تسهل، كما أعتُقد في حينه، ولوج الدول المتخلفة الى عصر الصناعة. وعلى الرغم من استعصاء التنمية، وبقاء هيمنة الغرب على السياسات الاقتصادية والقطاعات الحيوية، وتحكمه بشبكات تمويل التجارة وممراتها، فإن العقود الأربعة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، كانت فترة هجوع للعولمة وهيمنة للسياسات القومية والاقليمية على عمل الاقتصاد العالمي.

في نهاية القرن العشرين عدنا نشهد موجة جديدة للعولمة هي الأشد تاريخيًا، استفادت هذه الموجة أيما استفادة من الثورة التكنولوجية والمعلوماتية، لكنها بدأت بحدثين سياسيين، وصول مارغريت تاتشر إلى رئاسة الحكومة في بريطانيا عام 1979 التي نجحت في إبعاد حزب العمال عن السلطة، ونجاح رونالد ريغان في الوصول إلى البيت الأبيض في كانون الأول عام 1981. لقد حصل الليبراليون الجدد على فرصة لإكساب أفكارهم المتطرفة الحياة. تأثرت تاتشر المرأة الحديدية بالاقتصادي النمساوي فون هايك، الذي شجعها على إلغاء الدعم المالي وتقليص مدفوعات الرعاية الاجتماعية، وخفض معدلات الفائدة وايصال التضخم الى الصفر[7].

لقد آمن ريغان من جهته بأفكار ليبرالي آخر هو آرثر لافرLaffer Arthur. آمن لافر بأن خفض الضرائب بعد أن تصل الى مستوى معين، يمكّن الدولة من الحصول على أموال أكثر وليس اقل. لم يحمل الاقتصاديون هذا الرأي ولا حتى صاحبه المنتمي الى جناح متشدد من الليبراليين الجدد،

[7] تردد صدى هذه النصائح بقوة في عن الداونينغ ستريت 10. وفي وقت قياسي أقر عدد من القوانين التي أسست لثورة محافظة لم تشهد لها أية دولة صناعية مثيلًا من قبل. باعت تاتشر في غضون مدة قصيرة عشرات المشروعات الحكومية، وخفضت الضريبة على أصحاب المداخيل العالية، وضاعفتها على أصحاب المداخيل المتواضعة، ولم تسجل انتصارها الحاسم إلا في السادس من آذار عام 1984 عندما اغلقت 20 منجما في ضربة أولى، فألغت بنتيجتها عشرين ألف فرصة عمل، ولم يزحزحها عن سياساتها هذه وقراراتها، الاضراب الذي نفذته النقابات واستمر 51 أسبوعًا، وكان فشله بمثابة بداية أفول نجم النقابات العمالية في العالم.

على محمل الجد. لكن المرشح الجمهوري آنذاك قرر ترقية هذا الشاب من أستاذ في جامعة كاليفورنيا الجنوبية الى كبير مستشاريه الاقتصاديين[8]، ولم يكن ريغان أقل تصميمًا من نظيرته البريطانية، للقطيعة مع سياسات إعادة التوزيع واتباع سياسات ضريبية محابية للاغنياء، والهجوم على دولة الرعاية.

إن تجاذب القوى الرافعة والقوى الكابحة على ما هو مذكور اعلاه، يضع العولمة في مسار دائري صاعد وهابط. وها نحن اليوم نشهد إحدى مراحل التباطؤ، التي تثبت عدم دقة المقولات الرئيسية المناصرة للعولمة، فالتجارة لم تحقق النمو والتنمية، والأسواق لم تكن أكثر رشدًا ومرونة من الدول في تحقيق الازدهار والرفاهية مع ما رأيناه من أزمات وانهيارات ومضاربات. والمصالح القومية لا الاقتصادية عادت لتكون المحرك الأساسي للعلاقات بين الدول، ومنذ عام 2008 يشهد العالم عودة الحكومات الى الصدارة دافعة الى الخلف المصارف والشركات، في حين تترنح التكتلات العابرة للدول (كالاتحاد الاوروبي) القائمة على تذويب السيادة الوطنية في أوعية اقليمية ودولية. وقد بدأ واضحًا ان الدولة هي الملاذ الأخير في الأزمات التي تتسبب بها الأسواق، والضامن الذي لا غنى عنه، عندما تهب رياح الفوضى.

إن العولمة الاقتصادية هي السبب الأول للولادة الجديدة لمجتمع الاستهلاك، بيد أن المسار الدائري الذي تتخذه العولمة يتسبب في حقن الاقتصاد العالمي بعوامل التأزم. فالمستهلكون، ولأسباب اجتماعية وثقافية، يفضلون الحفاظ على نمط عيشهم السابق حتى في حالات تراجع النمو والانتاج المترافق مع تقلبات العولمة وانقباضاتها. إن ضعف الاتساق هذا بين الأبعاد الاقتصادية للعولمة التي تظهر في جانب الانتاج والعرض وأبعادها الاجتماعية والثقافية التي تنعكس على السلوك الاستهلاكي هو أحد مصادر الأزمات المالية والنقدية الدورية التي يشهدها العالم والتي ينتظر أن تزداد خطورة وتسارعاً مع مرور الوقت.

[8] للمزيد راجع: أولريش شيفر؛ انهيار الرأسمالية..أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود؛ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 371؛ يناير 2010؛ ص: 64-78.

ثانيًا- النمو غير المتساوي:

تركت الثورة الصناعية بصمات مدهشة على مسار الرفاهية البشرية، حدث ذلك على نحو تدريجي ومطرد، فشمل مناطق ومجتمعات وفئات اجتماعية متزايدة لكن باثمان باهظة. حتى عشية تلك الثورة كان نمو نصيب الفرد من الناتج يساوي الصفر تقريبًا، اي ما يعادل بالكاد نسبة التكاثر السكاني التي لم تتجاوز 0.1 بالمائة طوال القرون الثماني عشرة بعد الميلاد. بعد ذلك ارتفع معدل نمو نصيب الفرد إلى واحد بالمائة مقارنة بـ1.6 بالمائة لنمو اجمالي الناتج[9]. هذا المعدل الضئيل أحدث ثورة في انماط الحياة وتحسنًا مطردًا في الرفاهية وتبدلًا جوهريًا في أساليب العيش. وكان كافيًا على مدى قرنين ونصف تقريبًا لمضاعفة الناتج العالمي بالأسعار الثابتة حوالي 150 مرة والدخل الوسطي للفرد عشرين ضعفًا وأكثر. وهكذا صار بوسع الفرد الوصول الى آفاق جديدة وغير مسبوقة للانفاق والاستهلاك، عززتها التطورات التكنولوجية وأسهم فيها تحسن الانتاجية التي زادت الجودة وقللت التكاليف.

وفي نهاية المطاف صار لدينا هيكل انتاج وسلم استهلاك لا يتوافقان مع التراتبية الأصلية للحاجات الأساسية. لم يكن قطاع الخدمات في أوروبا يشغل أكثر من 15 بالمائة من اليد العاملة في بداية القرن التاسع عشر وها هو الآن يمتص ثلاثة ارباع القوى العاملة فبها، وفي الوقت الذي حافظت فيه الصناعة بصعوبة على حصتها من العمال تراجع نصيب الزراعة من الناتج الى ثلاثة بالمائة فقط مقارنة بأكثر من الثلثين في نهاية القرن الثامن عشر.

بقول آخر، تراجعت نسبة الموارد المخصصة للغذاء لمصلحة مروحة واسعة من الخدمات الحيوية كالصحة والتعليم، والخدمات الطفيلية العقيمة كالمضاربة المالية على أسعار العقارات والمشتقات المالية. إن خفض نسبة الغذاء الى أقل من عشرة بالمائة من سلة الانفاق في الدول المتقدمة حرر نسبًا مئوية إضافية من المداخيل التي صار بامكان الافراد أن ينفقوها على هواهم، وليوجدوا من خلالها قاعدة قوية لاقتصاد استهلاكي منفصل عن الحاجات الاساسية والمنافع الضرورية[10].

---

[9] أنظر: توماس بكيتي؛ رأس المال في القرن الواحد والعشرين؛ القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر؛ الطبعة الأولى، 2016؛ ص: 82-98

[10] تبدو النزعة الاستهلاكية اقوى حضورًا في الدول ذات الاقتصادات الريعية، تفدر شركة "Bain and Company" المتخصصة بتقديم الاستشارات بخصوص السلع الترفيهية أنّ منطقة الشرق الاوسط سجلت مستوى عاليًا جدًا للانفاق على سلع الترفيه المقدر بـ 1400 يورو للفرد سنويًا وهذا يزيد عن 17 بالمائة من مجموع الناتج، وإذا عممنا هذا الرقم ليكون عالميًا –على سبيل التمرين- فإن حجم اقتصاديات الترفيه لن يقل عن 10 آلاف مليار دولار سنويًا. للمزيد من البيانات أنظر: www.bain.com

ولم يقتصر أثر النمو على الاستهلاك بل كان سببًا في حدوث تحولين إضافيين: فقد بدّل رأس المال جلده على حد تعبير بيكيتي[11]. تراجعت حصة الأرض بما فيها الاراضي الزراعية، من ما يزيد عن نصف القيمة الاجمالية لرأس المال إلى نسبة ضئيلة جدًا وتكاد لا تذكر منه[12]. لقد أحدث ذلك تغييرًا في النظرة إلى وظائف رأس المال واستخداماته، وتغيرت معه التوازنات الاجتماعية والاقتصادية والانفاقية، التي تتأثر على نحو هائل مع تعمق ظاهرة اللامساواة. وكمثال على ذلك، زاد عدد المليارديرات في العالم عشر مرات بين عامي 1987 و2013 (من 140 مليارديرا الى 1400) حسب مجلة فوربس فيما تضاعف ما يملكونه 18 مرة (من 300 مليار الى 5400). اي أن ثروة هؤلاء كانت تزيد بنسبة 6.8 بالمائة سنويًا في مقابل 2.1 بالمائة للآخرين. وعلى العموم فإن العشرة بالمائة الأغنى صاروا يملكون ما بين 60 و 70 بالمائة من مجموع الثروة البشرية، ويستحوذ الواحد بالمائة الواقفين على رأس هرم الثروة ما بين ربع وثلث المجموع[13]، وبما أن تركز الثروة يزداد كلما تسلقنا هذا الهرم نحو الأعلى، سيكون بوسع بضعة آلاف من الناس في أقل تقدير وبضعة ملايين منهم على أبعد تقدير، التحكم بموارد الكوكب بغض النظر عن مصالح وخيارات وأهواء المليارات السبعة الذين يقطنونه.

إن ترسخ ظاهرة اللامساواة من ناحية وغلبة الطابع الاحتكاري على اقتصاديات الاستهلاك من ناحية ثانية، يضع جانبي العرض والطلب في أيدي القلة، أما الغالبية فتجد نفسها مجبرة على الامتثال لنمط حياة وانفاق لا يتناسب بالضرورة مع تطلعاتها الفعلية وآمالها الحقيقية وثقافتها السائدة.

وهنا نتحدث بالضبط عما تود الرأسمالية النيوليبرالية إخفاؤه. إن الوفرة المتمثلة في مضاعفة الانتاج والمداخيل والرساميل (التي يفوق حجمها مئات آلاف مليارات الدولارات)، تفقد منفعتها الحقيقية بسبب تنامي اللامساواة في توزيعها بين الناس، وبسبب ما تستبطنه من تناقضات وآلام ومآس لا يمكن للأرقام الافصاح عنها.

تعبر العبودية، التي هي من الاشكال الصارخة للامساواة، عن الثمن الانساني الباهظ للرغبة في بناء حضارة تؤله القوة. وهذا ما رآه المفكر الإيراني الراحل علي شريعتي عندما كان يجلس على

[11] توماس بيكيتي (1971-): اقتصادي وباحث فرنسي معروف. مدير مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية. متخصص في مجال اللامساواة الاقتصادية والتاريخ الاقتصادي المقارن. ذاع صيته على اثر نشر كتابه "الرأسمال في القرن الواحد والعشرين" عام 2013.

[12] انظر: المصدر نفسه؛ ص: 124-127.

[13] الارقام مأخوذة من: المصدر نفسه، ص: 461-465.

اكوام من الحجارة على مقربة من احد اهرامات الجيزة. وعلى ما يقول في في رسالته المؤثرة هكذا كان يا أخي:

لقد "حمل ثلاثون ألفا من الرقيق 800 مليون من الواح الحجر من أسوان إلى قرب القاهرة ليشيدوا بها تسعة أهرامات في ثلاثين عامًا. كان مئات منهم يسقطون كل يوم من الاعياء ويلفظون أنفاسهم الأخيرة. فيأمر الفرعون بدفنهم في حفر تحيط بالأهرام، لتخدمه أرواحهم في الموت كما خدمته في الحياة". يعبر شريعتي عن شعوره بأواصر قربي تشده إليهم على رغم مرور السنين وتباعد المسافات.

لنرمي سهم الزمن 43 قرنًا إلى الامام، من القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد عند بناء الاهرامات، الى بدايات القرن التاسع عشر، حين كانت قوافل العبيد تُنقل بوحشية من أفريقيا إلى الأميركيتين للعمل في الأراضي المكتشفة الواسعة. تجسد هيرييت بيتشر ستاو ملامح من آلام هؤلاء في الرواية الشهيرة كوخ العم توم. نقتبس من الرواية الآتي: "قال الدلاّل (للفتى) اصعد الى المنصة وأرنا عدوّك ووثبك ورشاقتك وقوة عضلاتك.. انبرى الفتى الى المنصة، في حين سمع القوم من أمه أنّة عظيمة..والدلال يدفعه إلى الامام والدمع يسيل من عينيه الواسعتين اللامعتين،...، اقتيد الفتى الى سيده الجديد في حين كانت أمه العجوز تمد يديها المرتعشتين نحوه (قائلة): اشترني أنا أيضًا أيها السيد استحلفك بالله اشترني والا قضيت نحبي من الهم والحزن و(السيد) لا يأبه لتوسلاتها، ..لقد كان العبيد يشكلون نواة ثروته البشرية المقدر لها أن تتعاظم كلما وصلت السفينة الى مرفأ جديد". وفي السفينة نفسها حكاية أكثر مأساوية عن حكاية ذلك الفتى: ".. ففيما كانت الأم منصرفة الى البحث عن زوجها، حمل (الدلاّل) الطفل وقدمه إلى مشتريه". علمت الأم بعد عودتها ببيع رضيعها.. "فلم تبكي ولم تنتحب (بل) سكتت سكوت الأموات" وفي غفلة من رهطها النائمين مرت مرور الاشباح ثم رمت بنفسها في الماء[14].

لم يكن اقتصاد العبودية هامشيًا، كان العبيد يساوون 20 بالمائة تقريبًا من إجمالي سكان أميركا، مليون من مجموع خمسة ملايين، وكانت قيمتهم السوقية (هكذا!) تساوي مرة ونصف من الناتج المحلي الاجمالي لهذا البلد[15]. إن فظاظة العبودية، وضخامة رأس المال العبودي، تعبير رهيب ومحزن عن أفظع ألوان اللامساواة، التي تحول السادة الى مستهلكين حصريين لثمار عملية انتاج تقوم جموع غفيرة غيرهم، أما العبيد فهم مجرد أداة من أدوات الانتاج وجزء من ماكينته.

[14] هيرييت بيتشر ستاو؛ "كوخ العم توم "– ترجمة ميخائيل حداد؛ عمان: الاهلية للنشر والتوزيع؛ ط2؛ 2013.

[15] توماس بيكيتي؛ الرأسمال في القرن الحادي والعشرين؛ م.س؛ ص: 168-169.

زالت العبودية وبقيت ظلالها. فالقلة ما فتئت تستأثر بالنصيب الأوفر من ثمار النمو من خلال اللجوء الى انواع مبطنة من الاستغلال، يظهر ذلك على نحو خاص في رجحان كفة أرباب العمل وأصحاب الريوع في ميزان تقاسم المداخيل، بعد نصف قرن من المد والجزر بينهم وبين العاملين بأجر.

تكمن مفارقة الاقتصاد النيوليبرالي أو ما بعد الحداثوي، انه إذ يضخم اقتصاد الاستهلاك الترفي والترفيهي، ويوسع الخيارات المتاحة أمام المستهلكين، فإنه وبالقدر نفسه يضخّم أعداد المهمشين الذين ترميهم اللامساواة بعيدًا عن التيار الوسطي العريض السائد في المجتمع. هذا يخلق أنواعًا جديدة من الحرمان، حرمان لا يقتصر فقط على عدم تلبية الحاجات الاساسية، بل يتعداه ليشمل أنواعًا متعددة منه، تشمل الفضائين الافتراضي والواقعي على حد سواء.

واستطرادًا، تؤدي اللامساواة الى خلط أوراق طبقي يمس فهمنا لآليات عمل الاقتصاد السياسي التقليدية. لم يعد محدودو الدخل من الطبقات الدنيا والوسطى يميلون الى دعم البرامج اليسارية فيما يدعم الآخرون البرامج اليمينية. إن ميول ناخبي الولايات المتحدة الأميركية على ما يلاحظ أستاذ العلوم السياسية في جامعة ميتشيغين رونالد آنغلهارت لم تعد تتأثر بقضايا الاستقطاب الطبقي (الفقر العدالة الضريبية، سياسات الأجور..) بقدر تأثرها بقضايا الاستقطاب القيمي والثقافي (الاجهاض، المثلية، المساواة بين الجنسين وحقوق المرأة..)[16]. ولهذا السبب أمكن إمرار الجرعات الاضافية من السياسات المالية والضريبية المحفزة للامساواة بهدوء[17]. لكن لدى بورغينيون[18] خلاصة أخرى وهي أن اللامساواة في توزيع المداخيل بين الدول تراجعت في مقابل ارتفاع اللامساواة في داخلها وذلك بسبب العولمة. ففي الصين مثلًا، كان تدفق الاستثمارات المترافق مع الليبرالية الاقتصادية التي أطلقها دينغ سياو بينغ، في مصلحة نخبة اقتصادية جديدة وصغيرة فيما تّرك معظم السكان في الخلف يعانون من عواقب الفقر وعدم العدالة. وحصل أمر مماثل في الدول المتقدمة، حيث ان الزيادة في حركية الاموال والتجارة والشركات، كان لمصلحة

[16]Ronald Inglehart; ***Inequality and Modernization.Why Equality Likely to Comeback***; Foreign Affairs, Vol.95, no 1, January/February 2016, PP2-10, p:3-8.

[17] زاد معامل جيني الذي يقيس اللامساواة عالميًا حوالي 6 بالمائة عالميًا منذ بداية التسعينيات، وهذا الرقم هو الحد الأدنى للزيادة، إذ ان الاحصاءات في الغالب تفشل في تقدير مداخيل الطبقات العليا جدًا (مثلًا الواحد بالألف الاكثر ثراء) فبمقدور هؤلاء إخفاء ثرواتهم وأرباحهم الريعية أكثر بكثير مما يستطيع فعله العاملون بأجر. وتعد الولايات المتحدة الاميركية المسؤول الأول عن زيادة اللامساواة تليها بدرجة أقل دول الأسواق الناشئة في آسيا.

[18] فرانسوا بورغينيون (1945-): اقتصادي فرنسي، عمل مديرًا لمدرسة الاقتصاد في باريس ثم نائبًا لرئيس البنك الدولي. له العديد من الابحاث التي ركزت على الفقر واللامساواة الاقتصادية.

الأكثر دخلًا وثراء، كونهم الأقدر على تحين الفرص والاستفادة منها، فيما يعاني الآخرون من طائلة المنافسة الناتجة عن التحرير المالي والانفتاح التجاري[19].

ثالثًا- التنازع والتفاعل بين الوجوه الثقافية والاقتصادية للاستهلاك

هناك وشائج صلة قوية بين الأبعاد المختلفة للعولمة، تتفاعل هذه الابعاد فيما بينها لكن داخل وعاء ثقافي وهوياتي محدد، تختلط فيه الأفعال مع ردودها[20]. تحدث العولمة تموجات داخل الحياة الاجتماعية والثقافية تتعلق بالنظرة الى القيم والحريات والسلطات التي تفرضها. يعدد روتثبرغ في هذا السياق، ثلاثة أنواع من التضارب والنزاعات التي تتسبب بها العولمة[21]:

الأول هو التنازع بين الخيار الفردي والخيار الجماعي. يميل الأفراد الى الاستفادة القصوى من الانفتاح الثقافي والاعلامي الذي تتيحه العولمة، بغض النظر عن انعكاس ذلك على هوية المجتمع وثقافته وتراثه. في النقاشات التي دارت في إطار منظمة التجارة العالمية، أصرت فرنسا في أواسط تسعينيات القرن الماضي، على استثناء المواد الثقافية من موجبات تحرير تجارة الخدمات. كانت باريس تميل الى تقييد تداول المنتجات الثقافية الاميركية، مع ما يتضمنه ذلك من مس بحرية الأفراد في استهلاكها. إن حصر الخيارات الاستهلاكية للأفراد او توسيعها هو موقف قيمي بالدرجة

---

[19] Francois Bourguignon; ***Inequality and Globalization.How Rich Get Richer as the Poor Catch up***; Foreign Affairs, Vol.95, no 1, January/February 2016, PP 11-15.

[20] هناك عدة سيناريوهات لردات الفعل تجاه العولمة، ترتبط بالمكانة الاجتماعية والمستوى التعليمي والعامل الجيلي والقدرات الاقتصادية. وبحسب بعض الدراسات[20] فان النسبة الأكبر من المقيمين في المجتمعات التقليدية القديمة، طبقت السيناريو الذي يتبنى الأشكال الخارجية للثقافة المعولمة (الثياب، الاستهلاك...) لكن مع الحفاظ في الوقت نفسه على استمرارية القيم المحلية، وهذا يشمل الأجيال الشابة وغير الشابة في آن معًا. مع ذلك هناك من يعتقد أن الشبان يميلون إلى سيناريو ثان يقبل على نحو تام الثقافة العالمية، ويرفض الثقافة المحلية ويفتتن بالاستهلاك، فيما يتضمن سيناريو ثالث المشاركة في الثقافة المحلية والحفاظ على القيم التقليدية وخصوصاً منها العائلة والدين، مع استبعاد الثقافة العالمية والمساهمة فيها

ويورد كرزيسزتوفك (Krzysztofik 2002 , 27-29) خمس سيناريوهات بشأن ردات فعل الثقافات المحلية تجاه تأثيرات العولمة:

الاول: القبول التام والمبسط بالعولمة وهذا اكثر ما ينطبق على الفئات الشابة.

الثاني: الرفض التام الذي ينتشر خصوصًا في صفوف الكهول والأكبر سنًا.

الثالث: التكيف الانتقائي اي القبول والرفض الجزئيين.

الرابع: الخيار الهجين Hybridization والمتمثل في التكيف التشاركي فيما بين الثقافات، وهو خيار وسطي بين النزعة العالمية والنزعة المحلية العرقية والقومية والثقافية.

الخامس: هو الثنائية الثقافية اي وجود ثقافة بدرجتين، حيث يظل الافراد قادرين على المشاركة في الثقافة المحلية دون ادارة الظهر للثقافة العالمية.

[21]See: Lowerence E. Rothenberg; ***the Three Tensions of Globalization***; Occasional Papers from the American Forum for Global Education; No.176;2002-2003.

الأولى أكثر منه اقتصادي أو سياسي. فبالنسبة الى بعض الأمم تتقدم الخيارات الفردية على مثيلاتها الجماعية، في حين ترى أمم أخرى ان حفظ الثقافة المحلية وصون الخصوصية، له الاسبقية دائمًا على خيارات الأفراد وميولهم.

الثاني هو التجاذب بين تحرير الأسواق والتدخل الحكومي. وهذا أيضًا يرتبط بالمفاضلة بين الحرية الفردية والمصلحة العامة. فالسوق الخالية من القيود هي انعكاس لعدد كبير من الخيارات الفردية، فيما يعبر التدخل الحكومي عن التفضيلات الجماعية التي تحدد بوسائل سياسية.

يمكن للأسواق الحرة أن تسهم في وضع سلم الحاجات: ما الذي ينبغي انتاجه وكيف؟ لكنها لا تقدر على التعامل مع انعكاساتها الخارجية السلبية Negative Externalities، كالإضرار بالبيئة والتوزيع المجحف للأصول والثروات واستفحال الفقر وتقنين بعض السلع الأساسية كالمياه والكهرباء وضعف تأدية الخدمات الحيوية مثل جمع النفايات. ويشمل إخفاق الأسواق على نحو خاص الفشل في تقديم علاج فعال لبعض الأمراض المستعصية في البلدان قليلة النمو. تسمح الأسواق الحرة برفع أسعار الادوية مع انه يتسبب في موت مئات آلاف الاشخاص سنويًا.

نوع ثالث من التجاذب تفرضه العولمة، هو التعارض ما بين المستويين المحلي وما فوق المحلي في اتخاذ القرارات الأساسية التي تمس المواطنين. في عالم معولم تقع المنظمات الدولية خارج نطاق الضبط الديموقراطي، فلاتأخذ بعين الاعتبار مواقف المتأثرين بقراراتها وردود افعالهم تجاهها. ينظر الى صندوق النقد الدولي في معظم انحاء الدول النامية على انه رمز لاستبداد بيروقراطي مناقض للديموقراطية.

إن اشكال التنازع المذكورة هي ذات طبيعة سياسية واقتصادية بالدرجة الاولى، لكنها تنطوي على جوانب اخلاقية لا يمكن اهمالها.

ان طريقة استجابتنا للعالم المحيط بنا، يحددها مزيج من القيم والتاريخ والثقافة والتفاعل مع الخارج. تؤدي التربية ولا شك دورًا في التأكيد على أهمية الثقافة في صوغ حياتنا وفي استمرارية تناقل السمات الثقافية والحضارية عبر الاجيال. وتكوّن الثقافة أيضًا تفضيلاتنا الجمالية وتؤثر على نظرتنا للأمم الاخرى.

تأخذ الشركات الكبرى هذا الأمر بعين الاعتبار، وبقدر ما تعمل على خلق حاجات جديدة للمستهلكين، فانها تحرص على تقصّي الميول والنزعات الاستهلاكية النابعة من قلب الثقافات الشعبيّة. إنّ الماركات التي لا تتكيف مع الثقافات المحلية تجد صعوبة في إيجاد طريقها نحو الازدهار، والماركات

المائة الاهم في الترتيب العالمي، والتي هي بمثابة عملة اجتماعية Social Currency [22]، تحصل على قيمتها من خلال خلق صلات شعورية قوية مع الزبائن على اختلاف ثقافاتهم. وهذا بالتأكيد لا يتوافق مع الفرضية الشائعة التي تفيد بأن تقدم العولمة الاقتصادية يؤدي إلى تراجع التحدي الذي تفرضه الثقافات المحلية، فإذا كان الناس يرون الاعلانات نفسها ويتصفحون مواقع الانترنت ذاتها ويستخدمون ماركات متشابهة، فإن تفضيلاتهم واذواقهم ستتقارب تدريجيًا.

فهل هذا صحيح؟

الدراسات والشواهد التطبيقية تنعارض مع هذه الخلاصة بل إنها تبين أن القيم الثقافية هي أكثر قوة مما نتخيل.

تبين احدى دراسات الاسواق[23] أنّ القيم الثقافية القومية تؤثر على السلوك الاستهلاكي وعلى حوافز الشراء، فالأمم يمكن أن تتقارب على مستوى الدخل لكنها لن تتقارب بالضرورة على مستوى القيم الثقافية والقومية. وتفيد المعطيات المستخرجة من قواعد بيانات المستهلكين (TGI data) أن الفقراء والأغنياء يملكون قيمًا متقاربة داخل البلد الواحد، في حين تبرز فروقات كبيرة بين الافراد الذين يحظون بالمستوى المعيشي نفسه في بلدان مختلفة. وقد بيّن استطلاع أجري عام 2008[24]، أن الماركات التي تنتمي الى الثقافة المحلية تقدم أداء أفضل من الماركات الأخرى، مع افتراض التساوي في الأمور الأخرى. وتؤكد هذه النتيجة ما توصل إليه مشروع بيو لاستطلاع السلوكيات العالمية[25]، وهي أن البلدان النامية التي تملك ميراثًا ثقافيًا قويًا كالهند والصين (ودول العالم الاسلامي) كانت أقل تقبلًا لقيم الثقافية الأميركية الشعبية. ففي حين يعتقد 65%، من الاميركيين انتشار الافكار والعادات الاميركية هو أمر جيد فإن الغالبية في 46 بلدًا شملها مشروع "بيو" يرون العكس.

إنّ التفاعل بين العناصر الاقتصادية والعناصر والثقافية هو الذي يحدد ميول الافراد ورغباتهم في مجتمع الاستهلاك الجديد، في حين كانت الدوافع الاقتصادية هي الاساس في مجتمع الاستهلاك التقليدي.

---

[22] See: Nigel Hollis; ***Cultural Clash: Globalization Does not Imply Homogenization***, Millward Brown's Pov. May 2009. P:1

[23] Mapping cultural values for Global Marketing and Advertising

[24] Ibid

[25] See: Pew 2007 global Altitudes Project;http://www.pewglobal.org/

رابعًا - جدل الحداثة وما بعدها: وتصدعات الذوق الفني

لقد أوجدت العولمة سيلًا من السلع والمنتجات والخدمات الجديدة، التي ترتبط بحاجات غامضة وغير مؤكدة، ومع ذلك فإن الانفصال عنها يخلف شعورًا بغيضًا بالحرمان، يضاهي الحرمان من إشباع حاجات أساسية. هذا يجعل موجة الاستهلاك الجديدة ظاهرة ما بعد حداثوية أكثر مما هي حداثوية، فهي تحظى بقدر أقل من العقلانية، وترافقها تصرفات اقتصادية لا تتسم بالحد الأدنى من الرشد. أطلق منظرو مدرسة فرانكفورت اسم "السيولة الثقافية"على انتشار قيم الاستهلاك العبثي التي تجذب الجماهير إلى مزيد من الشراء. لقد اصيب اعضاء معهد البحث العلمي في هذه المدرسة بالذهول بعد انتقالهم القسري الى الولايات المتحدة الاميركية هربًا من الحكم النازي في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، عندما شاهدوا بأم العين كيف تحولت الثقافة الى شكل من أشكال الصناعة في هيوليوود ووسائل البث الاعلامي ودور النشر. مارست الشركات الاحتكارية الضخمة آنذاك، أساليب استغلالية ماكرة، كان لها الأثر البالغ في جعل الناس يهتمون بنظام اجتماعي وتصورات حياتية أحبطت اهتماماتهم الجوهرية وكبتت حاجاتهم الاساسية. فتصنيع الثقافة -والتعبير لماكس هوركهايمر (1895-1973) و تيودور أدورنو (1903-1969)[26]- يؤدي الى خلق احتياجات الناس والتحكم برغباتهم وحبس حرياتهم[27]، مما يفقد الثقافة والفنون أصالتها وعمقها وملامحها الثورية، وعوضاً عن ان تكون اداة تغيير وترقي، يصبح هدفها تلبية حاجات المستهلكين ودمجهم في النسق الثقافي القائم.

ويورد ديفيد هارفي[28] نماذج عدة تظهر أن التحول إلى ما بعد الحداثة هو سمة مجتمع الاستهلاك المعولم. يقتبس من شارلز جانكس، قوله بانّ النهاية الرمزية للحداثة في الهندسة المعمارية على سبيل المثال كانت "عند الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين من بعد ظهر 15 تموز 1972، عندما نُسف مبنى بريت-إيغو في سانت لويس المستخدم لسكن ذوي المحدود، باعتباره بيئة لا يمكن السكن

---

[26] ماكس هوركهايمر (1895-1973): فيلسوف وعالم اجتماع الماني ومن اهم مفكري القرن العشرين. من رواد مدرسة فرانكفورت النقدية. ألف بالاشتراك مع ادورنو كتاب جدل التنوير.

تيودور أدورنو (1903-1969: فيلسوف الماني واحد ابرز مفكري القرن العشرين. من رواد مدرسة فرانكفورت. قدم مع هوركهايمر نقداً للمجتمع الراسمالي.

[27] انظر: جيمس جوردون فينليسون؛ ***يورغن هابرماس مقدمة قصيرة جداً***-ترجمة أحمد محمد الروبي؛ القاهرة: مؤسسة هنداوي لتعليم والثقافة؛ الطبعة الأولى؛ 2015؛ ص:20-23.

[28] ديفيد هارفي (1935-) بريطاني الأصل. من اهم المنظرين الاجتماعيين المعاصرين. له العديد من الكتب والابحاث في حقول عدة، ضمنها آراءه الناقد للحداثة وما بعدها.

فيها". لقد تهاوت بفعل ذلك أفكار ممثلي الحداثة العليا، التي أفسحت في المجال أمام ظهور خيارات أخرى تقوم على التعلم من المشاهد الشعبية العفوية، والنسج على منوالها، عوضًا "عن اللهاث خلف الموديلات المجردة والنظرية غير القابلة للتطبيق، (تلك) التي انتشرت في ستينيات (القرن الماضي) وتضمنت أخطاء مميتة. (وإذا) كان جوهر الحداثة هو التنميط العقلاني لكل شيء، فإنّ جوهر ما بعد الحداثة هو البحث عن استراتيجيات تعددية وعضوية"، فمقاربة التصميم المديني في هذه الحالة، يصبح رصفاً لأمزجة وأمكنة شديدة التمايز والاختلاف. إن رواية ما بعد الحداثة– يضيف هارفي- تميزت بنقلة من هيمنة الابستمولوجيا إلى هيمنة الأنطولوجيا[29] او بتعبير آخر الانتقال من الاهتمام بمعرفة الوجود وفهمه إلى تحقيقه وتجسيده.

لقد عبر ذلك عن نفسه في الفلسفة من خلال قول برنشتاين بأن الاحداث التي ضربت باريس عام 1968 لثمانية أسابيع هي موجة غضب ضد الأنسانوية وتراث التنوير، وإدانة عارمة للعقل المجرد (أي العقل الأداتي القائم على الاخضاع والقهر)، وكره عميق لأي مشروع يستهدف تحرير الانسان عبر تحريك قوى التكنولوجيا والعلم والعقل"[30].

يصعب وصف ما بعد الحداثة بأنها قطيعة جذرية مع الحداثة، مع العلم ان الأولى تتضمن تنويعًا وتعددًا لا تحتمله الثانية. يذهب يورغن هابرماس[31] إلى أبعد من ذلك، إذ أنّه ينظر إلى ما بعد الحداثة على أنها أطروحة واهية، فليس هناك برأيه تغير في روح العصر، والذي شارف على نهايته هو الآيديولوجيات الطوباوية المرتبطة بالعمل كتلك التي أخذ بها الاشتراكيون، والتي أشهرت عجزها عن التقدم إلى الأمام في اتجاه اقامة دولة الرخاء(الاستهلاكي)[32].

بيد أن التنويع ما بعد الحداثوي، يتضمن إكراهات غير مباشرة أكثر مما يتضمنه من اختيار. لا يتردد دانيال بل على سبيل المثال، في تصوير ما بعد الحداثة على أنها استنفاد للحداثة من خلال الحوافز الخلاقة والمتمردة على مايسميه "الكتلة الثقافية"، والتي تضم ملايين من العاملين في محطات الاعلام والجامعات ودور النشر ومراكز الاتصالات..والذين يتولون تنظيم المواد الموجهة للجمهور الأوسع وإدارتها وانتاجها وتحديد مضامينها.

---

[29] ديفيد هارفي؛ ***حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التغيير الثقافي***-ترجمة محد شيّا؛ بيروت: المنظمة العربية للترجمة والمعهد العالي العربي للترجمة؛ الطبعة الأولى؛ أيار 2005؛ ص:61-62

[30] م.ن؛ ص:63

[31] يورغن هابرماس (1929-) عالم اجتماع وفيلسوف الماني، ينتمي إلى الرعيل الثاني لمدرسة فرانكفورت. من ابرز المفكرين المعاصرين، ويعد كتابه نظرية الفعل التواصلي من أهم اعمدة مشروعه الفلسفي.

[32] يورغن هابرمس؛ ***الحداثة وخطابها السياسي***-ترجمة جورج تامر، بيروت: دار النهار للنشر، الطبعة الأولى، 2002؛ ص:101-103

ولم يخل ذلك من تصدعات أصابت الذوق الثقافي منذ الستينات، كاحلال البوب محل الفنون الراقية، وحتى الديموقراطية الثقافية التي بدا وكأن الحداثة قد وفرتها، لم تعد كونها جزءًا من محاولات الفئات الصاعدة خلال الطفرة المالية التي حدثت بعد الحرب العالمية الثانية لتشكيل هوياتها الخاصة وإنشاء ثقافاتها الفرعية.

تسليع الثقافة

إنّ هذا الاتجاه لدمج ثقافة ما بعد الحداثة بالثقافة الشعبية، من خلال اتباع نمط استهلاك فج وفاقع، هو ما حاول الحداثيون تجنبه، عبر مقاومتهم العميقة لفكرة تسليع نتاجاتهم الثقافية. لكن هناك من ينسب نهاية الرقي الحداثوي إلى فشله في التعبير عن "الجمالية الرسمية لرأسمالية الشركات والدولة البيروقراطية". أي أنّ جل ما قامت به ما بعد الحداثة هو مدّ سلطة السوق لتشمل دائرة أوسع من المنتجات الثقافية التي لم تطلها يد الحداثة.

ويصل هذا المنطق إلى نهايته في قول كريمب "إنّ الشركات باتت في مرحلة ما بعد الحداثة الموجه الرئيسي للفن بكل المعايير" وذلك أكثر بكثير مما كانت عليه في فن الحداثة. "لقد غدت الشركات هي الموجه الرئيسي للفن بكل المعايير، فهي تشكل المجموعات الكبرى وتمول العروض الاساسية للمتاحف، وبيوتات المزاد غدت مؤسسات مقرضة مانحة الفن قيمة مالية تمامًا..

ويمكن الموافقة على أطروحتي جايمسون وماندل كما يصف هارفي، وفيها ان ما بعد الحداثة هي بالضبط المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة، وأن "انتاج الثقافة صار مندمجًا بالانتاج السلعي عمومًا...فالسعي المحموم لانتاج موجات طازجة من سلع تبدو دائمًا جديدة (من الثياب إلى الطائرات) وبأذواق تبدو دائمًا عصرية، هو الآن وعلى نحو متزايد الوظيفة البنيوية الاساسية للإبداع والتجريب الجماليين"[33]

ولم يقف الأمر عند حدود الثقافة والفن، بل إن أيدي الشركات باتت هي العليا في مجالات الابداع الجماهيري التي كانت بعيدة كل البعد عنها. هذا هو على الأقل هو رأي الكاتب الصحافي جولز بويكف في كتابه التاريخ السياسي للاولمبياد الصادر حديثًا[34]. لم يقتصر الأولمبياد في بداياته القديمة (776 ق.م) على الرياضة فقط بل شمل أنشطة علمية وأدبية متنوعة. وقد وصفه البارون

[33] م.ن

[34] أنظر: زياد منى؛ ***جورج بيكف مفككاً الاولمبياد: ملعب الرأسمالية الاحتفالية***؛ جريدة الاخبار، العدد2963؛ الجمعة 19 آب 2016
والكتاب تحت عنوان: Jules Boykoff; ***Power Game: A Political History of Olompics***, London, Verso,2016.

الفرنسي بيار كوبويرتان الذي أطلق فكرته الحديثة، بأنه واسطة للتهذيب الأخلاقي. كان الاولمبياد الذي جرت دورته الأولى في العصر الحديث في أثينا سنة 1896 بمنأى عن أي شبهة للكسب المادي مع أنه لم يكن بعيدًا عن التأثيرات السياسية. لكن في اعقاب الحرب العالمية الثانية فتح الباب أمام مشاركة واسعة النطاق للشركات كجهات راعية، وبات على الرياضيين المساهمة في البرامج الترويجية لهذه الشركات. كانت الكلفة المرتفعة للأولمبياد سببًا في ارهاق المدن التي تستضيفها، تكفي الاشارة مثلًا إلى أنّ كلفة اولمبياد لندن عام 2012 كان 18 مليار دولار أما الكلفة الاعلى على الاطلاق فهي لاولمبياد سوتشي الذي وصل الى 50 مليار دولار اميركي. وبحسب الكاتب تحول الاولمبياد الى نشاط رأسمالي، وخصوصًا بفعل الخصخصة التي بدأت في ظل حكم ريغان في دورة 1984. لم يعد يغطي بيع التذاكر اكثر من 5 بالمائة من الكلفة في حين تكفلت الاحتكارات الكبرى بتأمين 45 بالمائة من الكلفة وياتي الباقي من بيع حقوق النقل المتلفز.

يطلق بويكف على عملية دمج الاولمبياد بالراسمالية النيوليبرالية اسم رأسمالية الاحتفال[35] The Celebration Capitalism والتي تهدد، شأنها في ذلك شأن رأسمالية الكوارث، الديموقراطية وترهن الرفاه البشري والذوق الانساني للشركات.

إن نتائج سلعنة الابداعات البشرية على النحو المذكور لن تقتصر على تعظيم المنافع الارباح التي تحصل عليها الشركات والاحتكارات الكبرى، بل انه يعطي الشرعية الايديولوجية للمنظومة القائمة وانساقها الاجتماعية ومواردها الاقتصادية وايحاءاتها الذهنية. فتنميط الثقافة واخضاعها لمقاييس موحدة، يساعد الرأسمالية على اختراق الأدب والفن والتقريب من ثم بين الثقافة الراقية وثقافة الجماهير وإحاطتهما بمنطق استهلاكي ذي قيم متشابهة.

يبرز مغزى ذلك المعنى على نحو قوي في اعتبار الفيلسوف الفرنسي جان بودريار أن الحريات في المجتمع الاستهلاكي تساوي اللاحرية. فهو يرى أنّ الانسياق وراء التراتبية الاجتماعية التي تفرضها منظومات المجتمع الاستهلاكي القيمية تجعل الانسان يجري ليس وراء تلبية حاجاته، بل وراء إشباع حاجات نظام الانتاج-ما يسميه المنظومة الطاغية- التي يجهلها الإنسان[36]. يحلل بودريار في كتابه الرائد عن مجتمع الاستهلاك، تأثير النزعة الاستهلاكية على علاقة الفرد بالجماعة والعالم، وعلى التراتبية الاجتماعية، مظهراً الكيفية التي يبني فيها الاستهلاك النفوذ والمكانة والهيبة، فالتسويق

[35] م.ن

[36] للمزيد أنظر: جان بودريار؛ ***المجتمع الاستهلاكي: دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراتبيته***-ترجمة وتحقيق: خليل أحمد خليل؛ بيروت: دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1995.

لا يلبي الحاجات بل يولدها من العدم، او انه يضخّم حاجات موجودة فعلًا. والقدرة على إشباع هذه الحاجات هو الذي يغيّر التوازن بين الناس ويصبح رمزًا للفوارق الاجتماعية.

يحملنا ما تقدم على القول بانّ ثقافة الاستهلاك هي ذات منشأ حداثوي، لكن تجلياتها القصوى هي من مظاهر ما بعد الحداثة، إنها تستبدل عقلانية الاقناع بلاعقلانية التأثير، وتمامية المعنى بلانهائية التفسير، والأحادية التي تود حذف كل ما هو أصلي وعفوي، بالتنوع والتعددية الإستهلاكيين، ولأنها كذلك فإنها تقف على طرف نقيض من شمولية الحداثة واستعلائها ومركزيتها الفاضحة وتصنيفاتها الجوهرانية، لكنها تتمتع بقدرة أكبر منها على جعل الثقافة الغربية قادرة على التمدد والانتشار دون ان تلقى نفس الممانعة الشديدة التي لقيتها الظواهر الحداثوية.

خامسًا- تحول المنتجات الثقافية وتغير أسواقها

بقي الغرب منصة إطلاق التيارات الفنية والادبية وعنصر تحفيز للميول الثقافية الجديدة، ومع ذلك فإن فوضى ما بعد الحداثة وعبثياتها وتفكيكياتها، التي أوجدت قطيعة ما مع التراث الأوروبي وخصوصًا منه كلاسيكيات النهضة وما بعدها، انتهت إلى إخضاع المنتجات الثقافية لأنظمة السوق وقواعد عمل مجتمع الاستهلاك.

في كتابه "تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب" والذي يقدم فيه قراءة نقدية وموسوعية لتاريخ هذه القارة، التي لا يراها ذات جذور ثقافية موحدة، يورد قرم[37] الآتي: "كانت أوروبا الموسيقية وربما أكثر من أوروبا المشتغلة بالرسم، واقعًا لا يكن اجتنابه منذ القرن السابع عشر، فالموسيقى سواء أكانت ايطالية، فرنسية، المانية، أسبانية، أم انكليزية، لقيت الاعتراف في عبقريتها وانواعها الماضية في تزايدها، فمن الموشحة المقدسة أو الدينية إلى الغنائية، ومن الأوبرا الجدية المأساوية إلى تلك الخفيفة الهزلية. لقد كانت منابع الالهام هي الأخرى في تزايد: محاكاة الطبيعة، وحفيف أوراق الشجر، وزخات فوارات المياه، والملاحم العسكرية والسياسية... ". بل إن الاحتكاك بالحضارات والثقافات الأخرى، زود أوروبا بفرصة إنتاج روائع استثنائية قامت على التبادل الثقافي، مثل " *بلاد الهند الأنيقة* (1735) لرامو Rameau *وخطفًا من حريم السلطان* (1782) لموزارت، *وتركيا في*

[37] جورج قرم (1940-): مفكر واقتصادي لبناني، له العديد من الكتب في مسائل الفكر السياسي والاقتصادي. ذو نزعة نقدية للمركزية الغربية وفكرة الانقسام الحضاري.

ايطاليا(1814) لروسيني وأوبرا *عايدة* (1871) لفردي، حيث عبّرت الموسيقى الاوروبية بجلال عن الذهول الذي ألمّ بالاوروبيين أمام ما اكتشفوه من ثقافات أخرى، وانماط مختلفة من العيش عن تلك التي عهدوها"[38]

لكن هذا الرقي الجمالي قوطع بشدة في نهاية القرن التاسع عشر، مع صعود الشعور القومي وبدء حدوث الصدامات الضارية فيما بين أمم أوروبا نفسها. لقد كانت "اللغة الموسيقية العالمية" على ما يضيف قرم، تعبيرًا عن الوحدة الثقافية في أوروبا، والتي ما لبثت ان تفسخت على نطاق واسع خلال حربين عالميتين (حربين غربيتين بتعبير أدق)، لم يشهد التاريخ لفظائعهما مثيلًا. باتت الموسيقى الكلاسيكية الآتية من العصر الذهبي بمثابة لغة ميتة، وصار ما يجتذب الجماهير هو الفنون الشعبية الصاخبة من نوع الروك والبوب[39].

لقد حصل تقارب كبير بين الشروط التي تنتج على أساسها المنتجات الثقافية المحمولة على أجنحة العولمة، والمعايير والقواعد التي تعمل على أساسها أسواق الاستهلاك، وقد رأينا كيف أنّ الرساميل الضخمة والشركات الكبرى تمكنت من غزو عوالم جديدة وبعيدة لم تكن تحلم بالوصول إليها من قبل، فاستتبعت اعمالًا ابداعية كالرسم وانشطة انسانية كالرياضة لمصالها واهدافها.

لم يكن الربع الثالث من القرن العشرين عهد عولمة بالمعنى الحرفي للكلمة، ففي غضون تلك الفترة، حصل الاستقطاب الثنائي العالمي، وترسخت أركان الدولة القومية، وانتهى الاستعمار القديم، وصعدت أفكار التنمية وآيديولجيتها، واندفعت إلى الصدارة مؤسسات الامم المتحدة المشغولة بحاجات الدول النامية. لقد أبطأ ذلك وعلى نحو نسبي نزعة الاستهلاك المادي، وجعل نموها معقولًا ومعتدلًا، لكن ذلك لم يمنع النزعة الاستهلاكية في الثقافة والفنون من الانتشار على نحو جنوني وفج. فتجاوزت موسيقى الروك التي سبق الاشارة إليها سابقًا، بلدان المنشأ ولا سيما منها اميركا وبريطانيا، لتغزو دول القارة الاوروبية الأخرى وآسيا وأميركا الجنوبية، ولم يعد الهوس بهذا الفن العبثي مقتصرًا على اليافعين والمراهقين بل صار في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات يجتذب اليه فئات عمرية اكبر. ومن دلالات هذا الانتشار الواسع، انها تعبر عن توق الشبان إلى التحرر على ما يزعم، لكنها أسست للقطيعة مع الماضي، وأظهرت على نحو لا لبس فيه ان الانحطاط الفني لا يقلل من قدرة الغرب على عولمة نتاجاته وظاهراته الثقافية.

[38] د.جورج قرم؛ **تاريخ اوروبا وبناء أسطورة الغرب** -ترجمة د.رولى ذبيان؛ بيروت: دار الفارابي، الطبعة الأول، 2011؛ ص:194-198.

[39] للمزيد أنظر: م.ن؛ ص:215-220.

الإبداع وثورة المعلومات والتكنولوجيا: من سوق العرض والطلب إلى سوق الاعجاب!

لا بد من التوقف قليلًا عند جدلية الإبداع والآلة. لقد حولت ثورة المعلومات الفضاء الثقافي الى مختبر هائل تمتزج في أوعيته جهود ونتاجات وتجارب ملايين من الناس متفاوتي المهارات والابداع والذين لم يكن لتمتزج ابداعاتهم من قبل لولا هذه الانانيب الافتراضية السحرية. وفي عصر الانترنت فائق السرعة والانتشار، صارت الرموز السرية لولوج بوابات نشر المعارف والثقافات في أيدي تقنيي المعلومات ومصممي البرامج والتطبيقات، الذين باتوا يتحكمون ليس فقط بنوافذ النشر وأشكاله، بل أيضًا بالطريقة التي يتفاعل فيها منتجو المواد الثقافية مع مستهلكيها. لقد باتت علامات الاعجاب والمشاركة (...Like,Share,tag) هي صندوقة الاقتراع الجديدة التي تعطي حقوقًا متساوية وبطاقات انتساب موحدة لغارسيا ماركيز وامارتيا سن وبابلو كاويلو من ناحية وجيوش من السياسيين والفنانين والممثلين وصولًا ألى آخر مراهق مشغول بنشر وقائع يومياته وصورها على الفايسبوك من ناحية.

صار البحث عن الجماهيرية هو الهدف الأسمى لمنتجي المواد الثقافية ومروجيها، التي لم تعد تكتسب قيمتها من ذاتها، وهذا وضع الكاتب والموسيقي والفنان تحت رقابة المجتمع الافتراضي الفورية. وإذا كان توق اي "ناشط ثقافي" على الشبكة هو الحصول على مزيد من المعجبين، فإن التفاعل في العالم الافتراضي سيعيد انتاج المواد الثقافية وتكوين مهارات منتجيها باستمرار لتتوافق مع ذائقة التيار الرئيسي الجارف داخل الشبكة، والمكون من متصفحين يشكل الباحثون عن المتع والمسرات والتسلية غالبيته العظمى، والذي يشمل خليطًا فسيفسائيًا ومتذبذبًا وغير محترف من المستهلكين والمتلقين. إن من شأن ذلك أخضاع المواد الثقافية الراقية إلى آليات السوق الافتراضي الشبيهة بآليات العرض والطلب في أسواق البيع والشراء العادية.

هل تعد العولمة الاقتصادية بيئة مناسبة لانبعاث الثقافة؟

إن انعكاس العولمة الاقتصادية على الثقافة هو محل انقسام واسع بين رأيين: الأول يراها مؤاتية لانبعاث الثقافة والفنون والثانية لا يراها كذلك. يعبر الحوار الذي دار بين تايلور كون Cowen وبنيامين باربر Barber [40] في منتدى عقد عام 2003 حول العولمة"[41] عن هذا الانقسام.

الحجة التي استند اليها كون في نظرته الإيجابية الى التفاعل بين العولمة الاقتصادية والثقافية كما في كتابه "كيف غيرت العولمة ثقافة العالم"[42]، هو أنها تؤمن أحد شروط نجاح الإبداع الفني: القرب من السوق. فالتجارة توسع الفرص أمام المبدعين وتمهد الطريق امام الثورات الفنية. ويضرب على ذلك أمثلة عدة؛ الموسيقى الكوبية ريغا Reggae وجدت خصيصاً من أجل السياح الاميركيين الذين كانوا يرتادون الملاهي الليلية في كوبا في الخمسينيات. والسجاد العجمي صار ينتج بكميات كبيرة استجابة لتنامي طلب المشترين الاوروبيين في القرن التاسع عشر. ان ازدهار الأدب العالمي وانتشار أسواق الكتب والصحافة هو ثمرة التجارة التي جعلت العالم أكثر إبداعًا واعطت المتذوقين إمكانية الاستفادة من منتجات فنية ثقافية متنوعة. والانفتاح برأي كوين لا يوحد الاذواق بل يزيد قدرة الأفراد على الوصول الى خيارات متعددة تتناسب مع اذواقهم ومداخيلهم. العولمة تنمي الاختلاف لكنها تحرر المستهلكين من القيود الجغرافية.

يوافق باربر المتشكك بالعولمة في كتابه "الجهاد في مقابل عامل الماك Jihad vs Macworld على أن العولمة تنمي إمكانية الوصول إلى منتجات متنوعة، لكن تفاعل هذه المنتجات مع ثقافات أخرى غير ثقافتها الأصلية يعيد انتاجها من جديد. فالطعام الهندي التقليدي (التاندوري) ليس له الطعم نفسه في بومباي وباريس. يذهب الناس الى عالم ديزني بالقرب من باريس لاختبار ما يعتقدونه تنوعًا يجمع بين ثقافات متعددة فرنسية المانية ودنماركية وغيرها. لكن هذا المزيج برأي باربر يولد ثقافة مركبة ومصطنعة وتبتعد بصورة متزايدة عن نسختها الاصلية الموثوقة. وأكثر من ذلك،إنّ التماثل او الاختلاف برأي باربر لا يتعلقان بجمالية المنتج او طعمه، بل بالشروط المحيطة بتقديمه، فأهمية الماكدونالد لا تنبع من الطعام الذي يقدمه، بل من الطريقة التي يقدم بها والتي

---

[40] بنيامين باربر (1939-): كاتب اميركي واستاذ العلوم السياسية في جامعة ميريلند. قدم في كتابه الشهير الماك والجهاد نقدًا للعولمة.

تايلور كون (1962-): اقتصادي أميركي واستاذ في جامعة جورج ماسون. صنفته مجلة الايكونوميست عام 2011 من بين الاقتصاديين الاكثر تأثيرًا خلال عقد من الزمن.

[41] ***Globalization and Culture***, Cato Policy Report, May/ June 2003. PP:8-16.

[42] How Globalization Changing the World's Culture.

تتناسب مع ايقاع الحياة العصرية السريع.وهو في الوقت نفسه يشكل هجومًا ليس على المطبخ المحلي لمجتمع ما فحسب، بل على نمط الحياة الاوروبي والمتوسطي، نمط "وجبة الثلاث ساعات"، التي تلتقي خلالها العائلة للمشاركة في الطعام وتبادل الاحاديث.

وبالخلاصة لقد قرّب هذا التحول المسافة بين الاستهلاك والثقافة، وزاد من نفوذ القوى الاقتصادية والتكنولوجية المتحكمة بالشبكات داخل عالم الابداع، وفصل الآداب والفنون عن سياقاتها الاجتماعية، لكنه في المقابل افسح في المجال أمام الفقراء لمنافسة غيرهم في عالم الانتاج والنشر الالكترونيين، ونزع من أيدي السلطات معظم أدوات المنع والقمع، التي انتقلت مع ذلك إلى أيدي مشغلي المواقع الالكترونية الكبرى، ومنتجي التطبيقات الأكثر رواجًا وشعبية وترسملًا.

القسم الثاني: في الطبيعة الثقافية للعولمة واشكالياتها

أولًا: مجتمع الاستهلاك والمجانسة الثقافية

دعونا نعود إلى الوراء قليلًا للتدقيق من جديد في مفهوم العولمة نفسه. فالعولمة تعني كما سبقت الاشارة تكثيف الترابطات والتدفقات ما بين الامم باشكال جديدة. وإذا كانت الملامح الاقتصادية لذلك تبرز في زيادة حجم التبادل السلعي والمالي وإعادة رسم خريطة القوة العالمية، فإن السمة الظاهرية الأبرز للعولمة على صعيد التربية والتعليم، هو انتشار اللغة الانكليزية لغة عالمية مشتركة[43] وميل نظم التعليم العالي في ارجاء العالم الى الاقتراب من النموذج الغربي بل والتماهي معه، لأسباب علمية من ناحية وسياسية اقتصادية من ناحية ثانية.

لكن توحيد النظرة إلى العولمة وترابطاتها لا يعني الاتفاق بالضرورة على مدلولاتها الجوهرية. ويمكن تجميع الآراء بشأن الطبيعة الثقافية للعولمة في ثلاثة نماذج رئيسية: التجانس الثقافيCultural Homogenization اللاتجانس الثقافي وHeterogenization والثنائية الثقافية المحلية- المعولمة Culturalglocolization.

---

[43] يمكن توثيق هذه النتيجة بالاستناد إلى دراسة دودس (Dodds 2008) التي تضمنت مراجعة نتائج 41 دراسة أخرى، كان هدفها تحليل العلاقة بين العولمة والتعليم العالي. ويلاحظ ميزيتا (Muzita 2009) أنّ اللغة الانكليزية بدأت تكون اللغة السائدة في اليابان بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية وصعود خطاب التدويل Internationalization.

للمزيد انظر:

Yingqin Liu; ***Exploring the Impacts of Cultural Globalization on Cultural Awareness. Values and English Writing in Chinese Context***; USA: Cameron University, Intercultural Communication Studies XXI: 2 (2012)

في النموذج الأول تعني العولمة الانتشار التصاعدي لثقافة مهيمنة على الثقافات الأخرى، والمثال الأبرز على ذلك هو الرواج الذي تلقاه قيم الفردانية والاستهلاك الأميركية، دون ان يخضع المجتمع الأميركي لتأثيرات مضادة ومقابلة[44]. وبالمقابل تحفّز العولمة وفق النموذج الثاني، ردود فعل مقاومة لطغيان الثقافة المركزية المهيمنة، فتغذي النزعات الاجتماعية التي تميل إلى حفظ الثقافات المحلية وصونها من التأثيرات الخارجية. إن اتساع نطاق الاتصال والتواصل على المستوى العالمي ينمي برأي هودس (Hods 2010) التنازع والخلاف بين الثقافات بدلاً من نشر الوئام والتقارب فيما بينها، وهذا يدفع خصوصاً الثقافات المهّمشة البعيدة عن مركز القرار والفعل العالميين، الى المبالغة في إبراز الفوارق الدينية والثقافية والاثنية والاجتماعية التي تميزها عن غيرها، صوناً لهويتها من الذوبان.

يمزج النموذج الثالث بين الاتجاهين التجانسي واللاتجانسي، فالتبادل الثقافي هو عملية جدلية تؤثر على الثقافة المرسلة والثقافة المتلقية في آن معًا[45]، وتتداخل في إطارها قوى الدفع المعولمة مع قوى الجذب المحلية. وهذا ما يسميه عالم الاجتماع البريطاني أنطوني غيدنز الديالكتيك المحلي العالمي. تبدو المواد الاستهلاكية هنا محايدة من حيث الظاهر، إنها إذ تطلق ديناميات تغيير للقيم الثقافية، تفعل ذلك على نحو تفاعلي لا يسعى الى ترجيح كفّة حضارة على أخرى[46].

يبدو النموذج الأخير قريبًا من الاتجاه الذي ينظر بايجابية إلى دور العولمة في التكامل والتجدد الثقافيين، وفي بناء الاجماع والتوافق بشأن القضايا والهموم العالمية المشتركة (من الارهاب الى قضايا الاحترار المناخي). إنّ العولمة وفق هذا النموذج عملية Process تراكمية غير ناجزة، وهي ليست قدرًا مفروضًا على الأمم عاثرة الحظ، ولا تعني البتة توحيد طرق حياة الشعوب ولا قيمها ولا معتقداتها[47]، وبقدر ما لديها من مزايا عالمية مشتركة، فإنها تعج بالخصوصيات والنزعات المغرقة في محليتها. وحتى عندما ينبثق منها سلوك او قيمة عالميين مثل اللباس والفردانية، فإنه يُصبّ داخل قالب محلي له ملامح ثقافية خاصة.

---

[44] يؤيد هذا الرأي مثلاً كل من: كينبرغ Kinberg 2009 وكيمارافاديفلي Kumaravadivelu 2008

[45] Ibid; p:95-96.

[46] انظر مثلاً عن تجارب في السياق المذكور:

Zhang, Y.B., & Harwood, J, (2004); ***Modernization and Tradition in an Age Globalization: Cultural Values in Chinese Television***; Commercialism Journal of Communication 54, PP: 56-172.

[47] Ibid; p:106-96

ينبغي النظر إلى هذه الآراء والمداخل على أنها اتجاهات متزامنة ومتكاملة. المدخل التجانسي هو الأكثر دقة في في تحليل ثقافة الاستهلاك والسلوكيات الاقتصادية الأخرى المرتبطة بالعولمة. فهنالك ولا شك ثقافة استهلاكية مهيمنة ذات مرجعية غربية-أميركية.

قد يصح القول بأنّ النشاط الاستهلاكي بحد ذاته لا ينتمي الى فضاء ثقافي محدد، بل إنّ أبحاث نظرية المستهلك Consumer Culture Theory CCC تنظر إلى العالم الحقيقي لأي مستهلك على أنه عالم غير موحد ولا عقلاني ولا شفاف، فالنصوص الثقافية الشعبية الاستهلاكية (مثل الاعلانات، البرامج التلفزيونية، الأفلام..) تعبر حسب بعض الباحثين[48] عن أنماط حياة متمايزة، وتتضمن رموزًا متعلقة بالانتماء والهوية. ومع ذلك فإنّ تلك النصوص التي تتدفق من أماكن ونقاط متباعدة ومختلفة، تغذي في نهاية المطاف آيديولوجيات السوق النقية التي تنمّط المستهلكين وتغلفهم بغلاف واحد.

يكشف الباحثون في نظرية ثقافة المستهلك، من خلال تفكيك رموز وآيديولوجيات السوق الوسيطة، عن الطرق التي تستدرج فيها أنظمة الانتاج الثقافي الرأسمالي المستهلكين إلى إظهار الولاء لأنماط عيش محددة، والتزام هوية استهلاكية خاصة ومستمرة. هذا من دون ان يلتفتوا إلى ما تستنبطه من آراء ومواقف ومعتقدات وأفكار. يعيد هؤلاء المستهلكون إنتاج ما تظهره المواد الإعلانية في حياتهم بسلاسة. هم يلتزمون بإحدى آيديولوجيات السوق دون أن يشعروا بأدنى تناقض مع انتماءاتهم الفكرية والوجوه الأخرى لهوياتهم. لكن هذا الانشطار الداخلي لا يعمل على نحو متوازن وعادل. فبدلًا من دمج الهوية الاستهلاكية في الهوية الأوسع، يحدث العكس، حيث تتكيف الهوية الأصلية مع حاجات السوق ومتطلبات المجتمع الاستهلاكي. ولنلاحظ مثلًا تحول الحجاب من خيار ديني فردي، الى سلعة استهلاكية دخلت عالم الموضة الجماهيرية.

---

[48] يقدم آرنولد وثامبسون في دراسة لهما عرضًا موجزًا وشاملًا لاهم الاعمال والابحاث في مجال نظرية المستهلك، والتي كان هدفها إيجاد الرابط المنهجي بين للتصرفات الاستهلاكية الفردية والبنى الثقافية ذات الصلة، وموقع تلك التصرفات داخل الحقائق الآيديولوجية والبنيوية للأسواق. وهذا يختلف عن المنهج الذي اتبعته أبحاث المستهلك التقليدية والتي تنظر إلى الموضوع غالبًا من أبراج عاجيّة. لا يقتصر اهتمام نظرية ثقافة المستهلك على الدوافع الشخصية والاقتصادية للافراد عندما يقبلون على الاستهلاك، كالرغبة في تعظيم المنفعة، بل تعنى أيضًا بالمضامين الثقافية والتأثيرات الاجتماعية والتاريخية والتجارب المجتمعية التي تشكل هويات المستهلكين ضمن آلاف مؤلفة من السياقات غير المنظمة في الحياة اليومية.

للمزيد انظر:

Eric J. Arnould and Craig J. Thompson; ***Consumer Culture Theory CCC: Twenty Years of Research***; Journal of Consumer Research, Vol.31, No.4, March 2005, PP:868-882.

هذا يشجعنا على الأخذ بالخلاصة الآتية بخصوص ما بدأنا به عن نماذج العولمة الثقافية: ينطبق النموذج التجانسي على قضايا الاستهلاك وانماط العيش اليومية، فيما يتناسب النموذج الثاني اللاتجانسي مع المسائل ذات الصلة بالهويات الجوهرية، والرؤى العقائدية حيث تحفز محاولات الهيمنة الثقافية العالمية ردود أفعال تباعدية وانطوائية تؤكد على الخصوصية.أما النموذج الثالث الذي يمزج بين التجانسية واللاتجانسية على نحو تفاعلي فهو متناسب مع مسائل القيم. فالثقافات تتبادل التأثر والتأثير فيما بينها في هذا المجال لكن على نحو متفاوت ومتأرجح، فيزداد التغريب الثقافي حضوراً كلما ابتعدنا عن القيم الجوهرية، ويسود اللاتجانس كلما اقتربنا منها.

نقاش إضافي: من ثنائية التجانس واللاتجانس إلى الهجانة الثقافية

يناقش جون توملينسون[49] في كتابه العولمة والثقافة فرضية المجانسة الثقافية المرتبطة بالعولمة Homogenization، والتي تجعل جميع الأمكنة تبدو متشابهة تقريباً. لكن التشديد على نظرية المجانسة الثقافية كما يقول "تشبه قليلًا الوصول بالطائرة لكن مع عدم مغادرة المطار مطلقًا، مع قضاء المرء كل وقته، في التجول بين الماركات العالمية التي تباع في محلات السوق الحرة"[50].

يميز الكاتب هنا بين المجانسة العالمية التي تعني الاتساق، وهو ما يعد غير مبرر برأيه، وبين ما يطلق عليه "المرتبطية" Connectivity التي تعني التقارب، المماثل للانتقال بالطائرة ثم الولوج الى المجتمع الجديد. لكنها لا تجعل جميع الاماكن متشابهة. إنها تخلق فضاءات معولمة متزامنة مع انضغاط الزمان والمكان (في حالة السفر). لكن المبالغات الاستهلاكية والتطرف في اعتماد الرموز الاستهلاكية ذات الدلالة الاجتماعية، تحجب عن المسافر مثلاً التباينات الثقافية بين المجتمعات. يقول توملينسون: " الأمر الذي لا يختبره المسافر على درجة الاعمال هو الاحتكاك بالممارسات الثقافية اليومية التي لا تكشف عن نفسها في الفنادق الفخمة، لكن في الشوارع والبيوت ودور العبادة ومواقع العمل والحانات والمتاجر الواقعة بعيداً عن مراكز الاعمال والمولات الكبرى والمزارات السياحية"[51]. إن هذه النواحي اليومية هي ببساطة الأماكن التي يعيش فيها الناس حياتهم اليومية. اي البيئة اليومية لما يسمى الديار.

يشير لاش و يوري الى ان المجتمع الحديث هو مجتمع ذو حركية عالمية، والذي لا يمكن تصوره دون الانماط الجديدة من النقل والسفر الدائم ولمسافاتٍ بعيدة. بحث الكاتبان في الانعكاسات المستدامة الدائمة للتنقل عبر الزمان والمكان والذي صار يحدث بمقاييس كبيرة جدًا مع ما يتضمنه ذلك من مخاطر وفرص. لا يقتصر السفر على الانتقال من مكان الى آخر، بل انه الحركية الفائقة تؤدي الى حدوث تحولات في نظرة الافراد الى هوياتهم، فالعولمة هي ذات ثلاثة وجوه اساسية: ترتبط اثنتان منها بالمال والبيئة والثالثة بالثقافة العالمية والانتماء القومي[52] .

يؤكد توملينسون ردًا على ذلك، بأن الحياة المحلية، التي تتم المقارنة بينها وبين الحياة العالمية العابرة التي يمثلها الفضاء ومبنى المطار، هي النظام الهائل للوجود الاجتماعي والانساني. "فالمرتبطية" تزيد الصلات والتفاعلات بين الأمم المختلفة، لكنها غير قادرة على اختراق المجتمعات المحلية بعمق، او جذبها على اختلافها نحو الوحدة. مع العلم ان مفهوم العولمة برأيه يمتلك قوة دلالية للميل نحو الاحادية.

---

[49] جون توملينسون (1946-): بريطاني، استاذ بارز في علم الاجتماع الثقافي، مدير معهد التحليل الثقافي في توتنغهام.

[50] انظر: جون توملينسون؛ ***العولمة والثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان؛*** ترجمة د. إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة 354 اغسطس 2008. ص 15.

[51] المصدر نفسه ص 16.

[52] For more details, see: Scott Lash & John Urry; ***Economies of Signs and Spaces***; London: SAGE Publications, 2002.

ويمكن ان نردد مع رولاند روبرتسون[53] أن العولمة هي اطار مرجعي تتفاعل في داخله القوى الاجتماعية المختلفة وتشكل احداها قيدًا على الاخرى، بل يمكن ان نوافق على أن السوق العالمية تنتج حضارة عالمية عابرة للحدود. لكن ذلك يبقى محصورًا فقط بالمجتمع الاستهلاكي والقيم الاجتماعية ذات الصلة بالبصمة الاقتصادية للفرد. ولا يتغلغل أكثر نحو المناطق العميقة الواقعة على حدود الوعي الفردي واللاوعي الجماعي، والتي تتكون فيها نظرة الناس الى هوياتهم المستقرة بعيدة الأمد، والى انتماءاتهم الجذرية التي تعبر عن استمرارية وجودهم عبر الاجيال والاماكن.

في مقابل ثنائية التجانس واللاتجانس كرؤية للعولمة الثقافية، يدافع الناقد الثقافي المكسيكي-الارجنتيني غارسيا غويديني عن فكرة الهجانة الثقافية، والتي تعد معها العولمة قوة تجانس والنزعة المحلية قوة مناهضة لها. ينظر غويديني الى ثقافة اميركا اللاتينية على انها ثقافات هجينة، منطلقًا في ذلك من تحليل واسع النطاق للعمليات الثقافية المختلفة: المتاحف، الأفلام التلفزيونية، الجامعات، أفلام الكرتون والغرافيتي والفنون البصرية. في هذه الثقافة الهجينة تمتزج أنظمة ثقافية كانت منفصلة في السابق مثل فنون النخبة (الأوبرا) والفنون الشعبية. وجه آخر للهجانة هو لامكانية العمليات الثقافية، التي تنتزع من محيطها المادي وتوضع في سياقات اجنبية. ونشوء أنواع غير صافية للمنتجات والسلع الفنية/الثقافية، كأن يقوم حرفي من الريف المكسيكي بحياكة رسوم لرسامين أوروبيين، مولدًا بذلك اشكالًا فنية غير صافية تخلط بين اعمال راقية وفنون حرفية عادية.

هل تعزز وسائل الاتصال الهجانة الثقافية؟ لا تقدم الابحاث التطبيقية ردًا حاسمًا على هذا السؤال[54]، لكن لا شك أن وسائل الاعلام حفزت هذا التمازج وسّرعته، والذي كان قائمًا تاريخيًا من خلال التجارة والحرب والهجرة والعبودية. فالعولمة في عالم الميديا الواسعة هي عملية تلاحم وتجزئة في آن واحد. وفي هذا السياق يورد انطوني غيدنز مصطلحًا اضافيًا هو اللاتضمين الذي يعني اقتلاع العلاقات الاجتماعية من السياقات المحلية للتفاعل واعادة تشكيلها في نطاقات غير محددة من الزمان- المكان. وهذا برأيه امر مهم لفهم الطبيعة المعولمة للحداثة. وتعد وسائل الاعلام أبرز الامثلة على آليات اللاتضمين. ان تداخل هذا الاخير مع أمر آخر هو اللاتوطين، اي تفكيك العلاقة بين الثقافة والمكان، ينتج أشكالًا هجينة ومعقدة وجديدة من الثقافة[55].

[53] رولاند روبرتسون (1938-): عالم اجتماع بريطاني، واحد منظري العولمة البارزين. استاذ جامعي ورئيس جمعية سوسيولوجيا الدين. أبرز اعماله: العولمة.. نظرية اجتماعية وثقافية عالمية (1992).

[54] للمزيد عن الهجانة الثقافية انظر:

Marwan M. Kraidy; ***Globalization of CultireThrough the Media***; Pennsylvania: University of Pennsylvanian; (Kraidy, M. (2002), Globalization of Cultire through the Media. In J.R. Schemart (Ed); Encyclopedia of Communication and Information (Vol. 2, PP 359-363). New York, NY: Macmillan, Retrived from hltp// Repository Upenn. Edu/ asc- Papers/325

[55] راجع: جون تومليسون، العولمة والثقافة، مصدر سبق ذكره، ص 55-64.

ثانيًا: العلاقة اللاتزامنية بين الثقافة والعولمة:

يربط بعضهم تأثير العولمة على الثقافة بأمرين[56]: الأول هو نظرة الأفراد والمجتمعات إلى العلاقة مع الثقافات الأخرى، والدرجة التي تريد الوصول إليها في حماية الثقافة المحلية من التأثيرات الخارجية، والثاني: الموقف من الإبداع الجديد الناتج عن التفاعل والتمازج بين مسارات وثقافات متعددة.

لا يمكن النظر إلى العلاقة بين العولمة والثقافة من هذه الزاوية الضيقة فقط، ففي واقع الحال هناك القليل من الثقافات المعزولة، والتفاعل الثقافي المرتبط بالحراك الانساني، الاقتصادي والتجاري والعسكري، يحدث منذ آلاف السنين. وسنلمس دورًا مبهرًا للتجارة في إنتاج ثقافات عالمية النزعة والانتشار، وذلك على نحو هادئ وخلاق ومتواضع. يصح ذلك على التجار الفينيقيين والأغريق وعلى تجارة الحرير الصيني في القرون الوسطى، وسنجد بصمات لا يمكن طمسها للأساليب الآتية من الشرق الأقصى الآسيوي على الفن الأوروبي والأميركي في القرن التاسع عشر. ولا يمكننا ان ننسى بطبيعة الحال الأثر المعروف، الذي خلّفه التجار المسلمون على الثقافة والعمران واللغة وطرق العيش في الاماكن التي وطئوها من المغرب الى الصين ومن وسط أوروبا إلى أسفل أفريقيا.

والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا نُظر إلى التفاعل والتبادل الثقافيين بين الأمم في التاريخ على انه علامة إيجابية لسيرها نحو الاستقرار والنضج، فيما ينظر بسلبية الى مظاهره المعاصرة، كانتشار الافلام الاميركية والايقاع السريع للحياة العصرية وولادة منتجات وآراء وتقاليد لا مكانية قادرة على عبور الحدود بسهولة ويسر؟

تكمن المشكلة في ثنائية المسارات الاجتماعية وعدم اتساقها. فالتغيير القوي والمتسارع في العادات والسلوكيات والقيم اليومية، التي يراها الناس ظاهرية وعابرة، يقابله الجمود او التغير البطيء في القيم والسلوكيات الأخرى التي يراها الناس جوهرية وأساسية. إن هذا الدفع والجذب الناتج عن التفاوت بين الحراك السريع لنمط الحياة الاستهلاكي من ناحية واستقرار الهويات والمعتقدات والنظرة الى الحياة من ناحية ثانية، هو أحد العوامل الأساسية التي تجعل عبور العولمة لمساحات الثقافة والمجتمع عبوراً صعباً ومليئاً بالأزمات والتوترات والتناقضات.

[56]Lowerence E. Rothenberg; the ***Three Tensions of Globalization***; Op.Cit.

لكن هذا الفصل بين ما هو ظاهري وما هو جوهري مضلل تمامًا، فبعد مرور مدة زمنية كافية على اجتياز المجتمع طورًا جديدًا من أطوار الثورات التكنولوجية واحتكاكه بمنتجاتها، تبدأ التغيرات السطحية والمؤقتة بالتحول الى تغيرات دائمة وعميقة. وهذا ما يمكن ان نسميه بالأثر اللاتزامني للعولمة.

فعلى سبيل، لم تظهر المجتمعات ردة فعل ساخطة على امتلاك المراهقين واليافعين هواتف ذكية تسهل ولوجهم إلى العالم الافتراضي، ولم تر فيه تحدياً لقواعد السلوك الاجتماعي المقبول. بيد ان المجتمعات ستكتشف في وقت قريب، أن هذا التحول العابر لن يبقى عابرًا، بل سيحدث إلتواءات وانزياحات في الفضاء الاجتماعي، تمس على سبيل المثال لا الحصر، نظم الرقابة والضبط، ونظرة الأجيال الجديدة الى دور المؤسسات التقليدية كالأسرة والعائلة الممتدة والمدرسة، وموقفها من السلّم الاجتماعي القائم، والعلاقات والروابط المنبثقة عنه.

ثالثًا: الدين والعائلة أمام تحديات العولمة: مفارقة الصمود والجمود في تجربة العالم الاسلامي

تبدو الآثار الثقافية والتربوية للعولمة، أشد حضورًا ورسوخًا في فترات الانتقال السياسي والتي تترافق مع انقسامات وتشققات تسمح للتفاعلات الجارية على غلاف المجتمع بالتسرب الى طبقاته الداخلية. ولذلك فإن مجتمعاتنا العربية والاسلامية التي تمر بمرحلة انتقالية عاصفة ودموية وخطيرة، مرشحة أكثر من غيرها لامتصاص شوائب العولمة وعوالقها وسمومها، لكن ذلك لا يقلل أبدًا من قدرة المؤسسات والمبادئ الاجتماعية الراسخة كالدين والعائلة في منع حدوث ذلك، وهي التي أدت دورًا مؤثرًا في مجتمعات عالمية أخرى مرت بتحولات وصعوبات مماثلة.

ترصد إحدى الدراسات التداعيات الناتجة عن الانتقال السريع من العصر الآيديولوجي المتقشف إلى العصر النيوليبرالي الاستهلاكي. تتناول الدراسة المجتمع التقليدي في منطقة سيليزيا البولندية والتي كانت في كنف المعسكر الاشتراكي قبل سقوطه. كانت آثار هذا السقوط كبيرة على القيم الأساسية لمجتمع بقي عقودًا عدة خاضعًا لهندسة عقائدية واجتماعية وسياسية متشددة. برزت ثلاثة تحديات كبرى مع الانتقال إلى الرأسمالية[57]. يرتبط التحدي الأول بالتحول من مركزية قيم العمل وأخلاقياته إلى مركزية قيم الاستهلاك. تغيرت بنية الوظائف واتسعت مساحة الخدمات بعد تدمير

[57]See: Urzula Swadzba; ***the Impact of Globalization on the Traditional Value System; in the Scale of Globalization;*** Osrtava: University of Ostrava; pp:332-337; p:332

الصناعة. لكن العمل في قطاع الخدمات يتطلب صفات فردية مختلفة عن تلك التي يمتلكها العمال في قطاعات الانتاج السلعي. زادت روح المبادرة لدى الشبان لكن مع التركيز على قضايا ذات طابع فردي مثل تحقيق الذات وتعظيم الاشباع والحصول على دخل جيد. وبخلاف الأكبر سنًا يضع الشبان قيم التسلية والاستمتاع والترفيه في نفس مرتبة العمل. أقلية منهم وضعت العمل في مرتبة أعلى. يقدر الشبان العمل لكنهم يكرسون أوقاتًا أطول للهوايات، وهم يستدينون لشراء أنواع مختلفة وعصرية من السلع، ويخصصون للتسوق، الذي صار نشاطًا قائمًا بذاته للترويح عن النفس، مساحات طويلة ومنظمة من عطلهم الأسبوعية.

التحدي الثاني الذي يطرحة التحول يتعلق بالعائلة التقليدية، التي كانت في الحقبة الاشتراكية توفر الإحساس بالأمان وتلبي الحاجة للانتماء، وتؤمن المساحة اللازمة لإعادة إنتاج القيم التقليدية المرتبطة بالعمل والدين. واجهت العائلة مع هبوب رياح الإنفتاح الليبرالي تحديات ذات طابع ديموغرفي مثل ارتفاع سن الزواج وتقلص حجم الاسرة وزيادة نسبة الأطفال المولودين خارج الزواج. تراجعت أهمية العائلة بنظر الشبان لكنها صمدت.

التحدي الثالث موجه إلى الدين. لا شك أنّ الدين هو المساحة التي تحفظ القيم الاخلاقية وتقوي الروابط الانسانية، وتعطي المصلحة العامة أبعادًا مضاعفة بإسباغ القدسية الالهية عليها، إلا أنه فضلًا عن ذلك العنصر الأكثر أهمية في بلورة الوعي الاجتماعي وتحقيق الاندماج. في التسعينيات وما بعدها، شهدت مجتمعات أوروبا الشرقية زيادة في الحس الديني من ناحية وتراجعاً في نسب المشاركين في الأنشطة الدينية من ناحية ثانية. تعزى هذه المفارقة إلى أنّ ثقافة العولمة أعطت الدين طابعًا فرديًا خاصًا، وأخضعت حضوره في الشأن العام لمنظومة القيم المستمدة من حقول اجتماعية أخرى. لقد أضعف ذلك البعد المؤسساتي للدين، وخصوصًا بالنسبة الى الشبان الذين حافظوا على جوهر الدين، لكنهم انصرفوا عن مؤسساته وطقوسه[58].

تبدو **العولمة في العالم الاسلامي** وكأنها تسير في اتجاهات مختلف. تظهر العائلة صمودًا في مواجهة الضغوطات الناتجة عن الثورة التكنولوجية، لكن مع تغير في طبيعة العلاقات داخلها. بقيت العائلة دعامة أساسية للمجتمع وحاضنة للقيم المشتركة التي تغدو بمرور الوقت أقل صرامة من ذي قبل. يكتسب الشبان هوامش أوسع للحريات الأسرية، فيستعملونها في استنساخ هويات

[58]Ibid; P:333-336.

اجتماعية جديدة لهم في إطار من التجريب الخطر. بيد أنّ هذه النزعة الى التغيير لا تلبث ان تصطدم بعناصر الوهن الاقتصادي والثقافي والتعليمي التي تحفل بها البلدان الاسلامية.

إن تخفيف الطابع الابوي-الذكوري في مجتمعاتنا لم يكن لحساب تمكين الفئات المهمشة، بقدر ما أسهم في ظهور علامات ترهل على التماسك الداخلي للمجتمع. تُصاب العائلة بعوارض مماثلة لتلك التي تصيب المجتمعات نصف المدينية. تصمد العائلة في مواجهة عواصف الحداثة وما بعدها، لكنها تقف على الفالق الفاصل بين صفيحة التغريب والعولمة وصفيحة الأصالة والهوية. ففي الفضاء الافتراضي مثلاً تنمو لدى افرادها قيم التمرد والخصوصية والاستقلال، فيما تتعزز في الحياة العادية قيم الاتكالية والخضوع والاستتباع، لأسباب اجتماعية (اللامساواة وتدني مستوى التعليم..) وثقافية (مثل تبسيط المعتقدات ونزعها من سياقاتها ورفض التأويل) وسياسية (الاستبداد والتبعية والإذلال). هذا دون أن نغفل العوامل الاقتصادية وهي الأهم في مجتمعات واقعة في مصيدة تراجع قطاعات الانتاج السلعي، واتساع قاعدة اقتصاد الريع القائم على العطاء والتوزيع غير المرتبط بالعمل. ويترتب على الوقوع في هذه المصيدة تنمية قيم اقتصادية خطيرة، وإضعاف العنصر التعاقدي في العلاقة بين الدولة والمجتمع.

يبدو الدين من ناحيته العنصر الأكثر حضوراً في مشهد العولمة في العالم العربي والاسلامي. كان الاسلام هو الملجأ الذي تحصنت فيه الشعوب العربية والاسلامية في وجه أشكال الغزو المختلفة. أوجد هذا الدين الحنيف بغناه الروحي وحيويته التشريعية وقدرته على استيعاب التحولات التاريخية في منظومته المعرفية، قاعدة قوية لاندماج المسلمين في العصر دون التنازل عن إيمانهم وهوياتهم. كاد المسلمون أن يسبقوا الغرب إلى اطلاق الثورة العلمية والتقنية التي غيرت وجه العالم[59]، وكان لعلمائهم ورموزهم دور رائد في مواجهة الاستعمار وتحقيق الاستقلال.. وفي وقت بدت فيه العقائد والآيديولوجيات الأخرى أقل فاعلية وتأثيراً، أظهر الشبان تفاعلاً لافتاً مع الدين مقارنة بالاجيال السابقة والأمم الأخرى.

لكن، وفي خضم هذه النهضة الدينية، أُعيد تعريف الاسلام ورسمت له صورة مغايرة. ويتمثل ذلك على نحو خاص في: إبراز الأبعاد الجماعاتية والصورية للاسلام في مقابل حجب أبعاده الروحية

[59] من الاسباب التي يمكن ايرادها في تفسير فشل المسلمين في اطلاق الثورة العلمية الآتي: عدم توصلهم إلى فكرة المؤسسة التي تسمح بنقل التجارب ومراكمة الراسمال المادي والاجتماعي، وكان اهتمامهم بالعلوم هو لاسباب معرفية ونظرية لا انتاجية مما حال بينهم وبين اكتشاف الآلة، كما أدى اهمالهم علم السياسة الى بطء تطور الدولة، فظلت قاصرة عن السير في ركب نهضتهم الحضارية. بل إن الدولة السلطانية مع ما تتضمنه من ميل إلى الغلبة واعمال السيف والجري وراء الغنيمة كانت العامل الاساسي في الانتكاسات التي اصابتهم، ومنعتهم في تحقيق المراكمة الاقتصادية اللازمة لاحداث الطفرة التاريخية المطلوبة.

والفردية، واختصار الدين بالنص الذي صار هو المدخل الوحيد إلى فهم معانيه العقلية والقيمية والأخلاقية وليس العكس، وزعزعة مفهوم الأمة لمصلحة الانتماءات العصبية الضيقة، وارتفاع الاهتمام بالشريعة على حساب المشروعية.

وما زاد الطين بلة، هو تفتت المركزية الدينية التي تمثلها المؤسسات التقليدية العريقة كالأزهر في مقابل انتشار العشوائيات الدينية التي تعبر عنها بالخصوص الجماعات التكفيرية. وتعد هذه الجماعات مثالًا بارزًا على تناقضات العولمة والاحتكاك غير الحميد بالحداثة وما بعدها. إذ أنها تجمع في آن معاً بين الانغلاق الفكري والعزلة الحضارية وبين الاستهلاك الفائق لمنتجات العولمة والاستخدام المفرط لفضاءاتها. إن ما أسماه بعضهم بهوليوود داعش، هو إحدى الاشارات البارزة على ميل الجماعات المتطرفة الى التماهي مع النزعة الاستهلاكية وتبنيها لثقافة الصورة والتأثير المشهدي التي تطبع عالم ما بعد الحداثة بطابعها[60]. إن هجمات الحادي عشر من أيلول حسب رأي الفيلسوف الفرنسي جان بودريار هي بالاساس ذات خلفية ترويجية، وجزء من ثقافة استهلاكية بصرية صارمة.

[60] تمزج الافلام التي تنتجها داعش بين مهارة سينمائية عالية ومشاهد واقعية صادمة. وهذا ما يظهر مثلًا في "سليل الصوارم" و"لهيب الحرب" و"لو كره الكافرون" وصولًا إلى فيلم "شفاء الصدور"، حيث وظفت مشاهد الحركة البطيئة بحرفية عالية جدًا غير مسبوقة في امر حقيقي. وعلى العموم يمتلك داعش متخصصين في مجالات كتابة السيناريو والاخراج والتصوير والمونتاج والغرافيك وإدارة الانتاج ، التي استخدموها في إعداد نماذج سينمائية لعمليات قتل وحشية في اطار احترافي متعدد الجوانب: السيناريو المحبوك والمخيف، التصوير بكاميرات عالية الدقة، المؤثرات البصرية والتقنية، التعليق باللغة الانكليزية وبلكنة بريطانية، وفي الفيلم القصير فتح بغداد وسليل الصوارم استعان المخرج بمؤثرات من فيلم Kingdom of Heaven.

كما ادركت الجماعات التكفيرية أهمية الشبكة الافتراضية فزادت مواقعها من 12 موقعًا عام 1998 إلى 5800 موقع حاليًا، مع العلم أنّ 900 موقع يظهر في كل عام. ويشير معهد بروكينغز في دراسة أجراها أن 133422 تغريدة تنشر يوميًا من قبل مستخدمين يشتبه بارتباطهم بداعش،

للمزيد انظر: - اسلام السقا؛ ***داعش: هوليود الخلافة***؛ جريدة الاخبار، العدد 2511، الخميس 5 شباط 2015

- د. محمد محسن؛ ***الاستراتيجية الاعلامية لداعش: الخطاب والقدرات والوسائل***؛ ورقة في مؤتمر: جماعات العنف التكفيري: الجذور، البنى والعوامل المؤثرة؛ تنظيم: المركز الاسشاري للدراسات والتوثيق ومركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي؛ بيروت:9-10 أيلول 2015
- د. محمد علوش؛ ***وسائل الاعلام العربية والغربية وموقعها من التنظيمات الدينية المتطرفة***؛ ورقة في مؤتمر: جماعات العنف التكفيري: الجذور، البنى والعوامل المؤثرة؛ تنظيم: المركز الاسشاري للدراسات والتوثيق ومركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي؛ بيروت:9-10 أيلول 2015

القسم الثالث: انعكاسات العولمة على البنى الاجتماعية والقيم السياسية: حدود التأثير والبدائل

اولاً: الصدمة التكنولوجية وفجوة التكيف الاجتماعي:

يبدو سطح المجتمع مفتوحًا أمام ثقافة الاستهلاك، العادات اليومية والزوايا التي تُرى من خلالها القيم، والخصائص العابرة للعلاقات بين الافراد والمجموعات، والطريقة التي يعبر من خلالها عن التراتبية والتباين الاجتماعيين، كلها تخضع لتغييرات بعضها يبدو صادمًا ومثيرًا لردود فعل معاكسة. وكما أن مقاومة الموجات التكنولوجية هو أمر مستحيل، فإن احتواء مفاعيلها الثقافية والتخلص من رواسبها القيمية والاخلاقية يبدو صعبًا. إن إحدى أسباب الفوضى والتشوش المصاحب للعولمة يكمن فيما أسميناه بفجوة التكيف. فالسمة الرئيسية للعصر الرقمي هي ان الطفرات التكنولوجية غير المسبوقة تسير بسرعات متفاوتة بين مسار وآخر. ففي مقابل الثورات المتتالية في المجال الرقمي، تتطور المسارات الأخرى بوتيرة أقل. المؤشر البارز على ذلك هو الانخفاض الهائل في كلفة الحصول على المعلومات وتداولها. فمثلا تدنت كلفة معالجة المعلومات بين عامي 1960 و1990 بالاسعار الثابتة 750 ألف مرة، وفي الثمانينات كانت أسلاك النحاس تنقل صفحة واحدة بالثانية اما الآن فبوسعها نقل 100 ألف مجلة في الثانية نفسها.

وعلى العكس من ذلك، كان تطور انتاج السلع وتكاليفه بجريان بتوتيرة ابطأ بكثير، فلو أن أسعار السيارات انخفض بنفس نسبة انخفاض اسعار أشباه الموصلات، لصار سعر السيارة خمسة دولارات فقط. أما كلفة تشغيل خطوط النقل الجوي فتراجع خلال العقود الاربعة الأخيرة إلى النصف فقط.

إن فجوة التكيف تنشأ أيضًا عن اختلاف وتائر التقدم، السريعة على المستوى التكنولوجي والبطيئة على مستوى التحول في الانظمة القانونية والاقتصادية والاجتماعية المساعدة على استيعاب الاجيال الجديدة للتقانة، وهذه يصعب توطينها دون تكييف ثقافي مواز ودون ازالة للعوائف الاجتماعية التي تعترض الاستفادة منها. فالعصر الرقمي يزيد قدرة الافراد على تلقي البيانات ويعزز التفاعل فيما بينهم وذلك بغض النظر عن انتماءاتهم، لكن الموانع الثقافية تبطئ انتشار تأثيرات ذلك في المجتمع[61].

[61] للمزيد راجع: عبد الحليم فضل الله؛ ***علاقة المواطن بالسلطة في العصر الرقمي***؛ ورقة عمل قدمت إلى مؤتمر: التحاور، الشفافية ،الديموقراطية، المشاركة المدنية والسياسية في العصر الرقمي؛ تنظيم مركز "علوم التواصل والانسان" ومنظمة الاونيسكو، جبيل: 4-8/تشرين ثان/2013.

وعلى العموم، ما ان تخرج المجتمعات المتلقية من فجوة ناتجة عن صدمة تكنولوجية سابقة حتى تقع في فجوة اخرى ناتجة عن صدمة لاحقة. لنتذكر استطرادًا هنا ان الموجات التكنولوجية في تصاعد من حيث قوة التأثير والالتصاق بالافراد والمجتمع، وهي تنحو اكثر نحو الفردانية. كلمة خصوصية Privacy تقع الآن على رأس قاموس لغة الاتصالات ما بعد الحداثية. كلنا يبحث عن الخصوصية التي تمنع تعقب خطواته داخل عالم الميديا الاجتماعية. لم تكن هذه الكلمة تعني شيئًا بالنسبة الى موجة الاتصالات السابقة فالتلفاز كما الهاتف كان يستهلك جماعيًا ومن دون خصوصية تذكر. التقنية الجديدة تمنحنا فرصة كبيرة للتفاعل المتواصل وفرصة أكبر للانعزال، ان ابجديتها المتناقضة قائمة على الاتصال والانفصال، بحيث يتمدد الفرد اجتماعيًا وثقافيًا ونفسيًا ما بين عوالم مختلفة ومتباعدة، يتنقل فيما بينها كما تتنقل اصابع العازف على مفاتيح البيانو، منتجًا سمفونية حياتية غريبة وهجينة.

ثانيًا: المنطق الاخلاقي للعولمة: هل تشجع العولمة القيم السياسية الإيجابية؟

يزعم مناصرو العولمة أنها إذ تصطدم بالبنى المحلية الراسخة، فإنها تفسح في المجال أمام حضور القيم الليبرالية وانتشارها، وعلى رأسها قيم الحرية والتنوع والتسامح. فالى اي حد يتوافق هذا الزعم مع واقع المجتمعات والامم التي ارتدت ثوب الانفتاح والتعددية الثقافيين؟ وما هو المنطق الاخلاقي الذي تتقيد به؟

الحرية والاخلاق:

يطور "أمارتيا سن"[62] في كتابه "الاقتصاد هو علم اخلاقي" مفهومًا للاخلاق الاجتماعية، تمثل الحريات الفردية عنصرًا جوهريًا فيها. يتعارض هذا المفهوم مع المنظورات الأخرى التي تتخذ من الاحتساب النفعي للرغبات والمتع والمسرات ركيزة للسياسات الاجتماعية. وبخلاف ذلك ينظر "سن" الى الحرية على أنها مسؤولية اجتماعية، خصوصًا وأن للعديد من المعضلات الاخلاقية برأيه طابع اقتصادي. يروي في هذا السياق تجربتين شخصيتين عاشهما في طفولته في البنغال، المجاعة عام 1943، التي لم يحس بوقعها في نطاقه الاجتماعي، الى أن رأى جموع الباحثين عن الطعام تجتاح القرية التي كان يقطن فيها[63] في دراساته اللاحقة التي كرسها لهذه المجاعة، تبين لـ"سن"، أن الكمية الإجمالية للطعام المتاح حينه في البنغال كان مقبولًا، وبالتالي فإن الذين ماتوا

[62] أمارتيا سن (1933-): مفكر اقتصادي معروف. من مواليد البنغال، مارس التعليم في العديد من الجامعات من بينها : كامبريدج ومدرسة لندن للاقتصاد وغيرهما. نال جائزة نوبل للاقتصاد لمساهماته في تطوير اقتصاد الرفاه والتنمية البشرية.

[63] Amartya Sen; ***L'economie est une science morale*** ; Paris: La Decouverte, 2003, P 43- 45.

جوعًا لم يقضوا بسبب قلة كميات الغذاء، بل لعدم امتلاكهم الوسائل اللازمة للوصول الى المحاصيل المحيطة بهم. أما التجربة الثانية، فتتعلق برجل مسلم، اضطر الى البحث عن العمل لاطعام عائلته في منطقة هندوسية، وقد تعرض نتيجة ذلك الى الطعن على خلفية طائفية، وفارق الحياة دون ان تنجح محاولة والد "سن" لاسعافه"[64].

لا يخلو مفهوم الحرية الفردية من الغموض. أورد بيرلان[65] تمييزًا مهمًا ودقيقًا بين التصورين "السلبي" و "الايجابي" للحرية. تتعلق هذه الأخيرة بامتلاك الفرد القدرة على القيام بعمل ما، فيما تعني الحرية السلبية، بالدرجة الأولى عدم وجود عوائق تمنع الفرد من القيام بالعمل نفسه. التفريق بين العجز والمنع هو الأساس في التمييز بين نوعي الحرية المذكورين.

يضرب سن المثال الآتي، اذا لم اتمكن من التنزه في حديقة عامة بسبب الإصابة بإعاقة جسدية فهذا ينتقص من حريتي الإيجابية، لكن لو كنت في صحة تامة، وامتنعت عن التنزه في الحديقة نفسها خوفًا من ان يلحق بي بعض الرعاع الأذى، أو بسبب تدابير معينة (مثلًا اغلاق الحكومة اللبنانية لحديقة حرج بيروت)، فهذا معناه أنّ حريتي السلبية قد انتهكت. هذا التمييز الصارم بين مفهومي الحرية هذين، لا يلغي الحقيقة التي يعتقد بها "سن" وهي وجود تأثير متبادل بين الحريتين لا تأثيرًا باتجاه واحد.

في أدبيات تيار التحررية Liberterian، تتجسد الحرية الفردية حصرًا في الحرية السلبية، في وقت وجّه فيه العديد من المفكرين والفلاسفة والملهمين (من ارسطو الى كارل ماركس، ومن مهاتما غاندي الى فرانكلين روزفلت) اهتمامهم أيضًا الى الحرية الإيجابية. فالتعريف المتكامل للحرية يوجب أن يتضمن التصورين السلبي والايجابي معًا، أي نزع القيود والتمكين. فالشخص الغارق في الفقر كما في حالة "قادر" الذي شهد "سن" مقتله في طفولته، هو فاقد للحرية الايجابية بسبب فقره ، ومحاولته استرداد حريته هذه، بتفتيشه عن عمل في منطقة معادية، عرض حريته السلبية للانتهاك[66]. لذلك فإن المسؤولية الاجتماعية تملي اعطاء عناية متزامنة لنوعي الحرية المذكورين على قدم المساواة.

يهتم النفعيون Utilitarianism بالنتائج المترتبة على امتلاك الحرية، اي الحصول على المتعة واشباع الحاجات والرغبات، وقد شكلت الأدبيات النفعية التي طورها كل من جيرمي بنثام وجون ستيورات مل، ضغطاً على الدراسات الاجتماعية وابتعدت بها حتى عن الدعاوى الليبرالية التي بنيت عليها.

[64] Ibid, P: 46-47.

[65] اشعياء برلان (1909-1997): بريطاني من أصل ليتواني. فيلسوف سياسي وباحث في تاريخ الافكار الاجتماعية والسياسية.

[66] Ibid, P:55.

لا تدخل الحرية في حسابات النفعيين بل إن تعظيم شأن الاستهلاك المرتبط بالمتع والمسرات أكثر من ارتباطه بالحاجات الاساسية، يتعارض مع المضمون العميق للحرية الفردية. فعلى سبيل المثال، تؤدي السياسات النيوليبرالية الى تكريس اللامساواة الاقتصادية، واستمرار هذه الاخيرة مدة طويلة من الزمن، تجعل من هم في أسفل السلم الاجتماعي يتقبلون واقعهم بهدوء، فيعيدون تكييف حاجاتهم ورغباتهم على هذا الأساس. اي أن ظروف اللامساواة تؤدي الى تشويه التقدير النفسي والذهني للمنفعة[67]. ثم إنَّ قبض أقلية من الشركات والدول على ناصية التسويق والترويج[68] كفيل بالمس بجوهر فكرة حرية الاختيار الفردي.

يفضي هذا النقاش الى القول، ان مجتمع الاستهلاك وثقافته المرتبطة بالنزعة النيوليبرالية المتشددة، يهدد في آن معًا البعدين السلبي والايجابي للحرية. في الظاهر تمنحنا ثورة المعلومات والإعلام مروحة أوسع من الخيارات ولكنها تسلبنا في واقع الحال القدرة على الاختيار. الإبهار البصري، اللامساواة، الرسملة الهائلة للإعلانات، تمجيد العلامات التجارية الكبرى، النطق الحصري باسم الجودة، كل ذلك يجعلنا عاجزين عن اتخاذ قرارات صائبة ودقيقة تتوافق مع حاجاتنا ورغباتنا وميولنا الحقيقية وتتناسب مع قدراتنا وامكاناتنا. أما التشريعات والقوانين والنظم الاقتصادية والسياسية الراعية للاحتكار المعزز بالفساد، فتضع قيودًا على امكانية الوصول الى السلع والخدمات التي نريد، وتحول بيننا وبين التفاعل الايجابي مع تجارب عالمية أخرى تتمتع بالجودة والمعايير الجمالية الراقية، لكنها تعجز عن اختراق شبكات التسويق العالمية المغلقة. وبذلك تنتهك ثقافة الاستهلاك في عالمنا العربي والاسلامي خصوصاً حرياتنا السلبية والايجابية في الوقت نفسه.

التعددية والتنوع والتسامح:

لا يمكن حسم الجدل بسهولة بشأن انعكاس العولمة على قيم التنوع والتعددية والتسامح. فلو عددنا المجتمعات الغربية أنها المثال الاقوى على صعود ثقافة الاستهلاك وتحكمها بمصائر المجتمعات، فإن هذا الصعود صاحبه وهن شديد في الأداء الديموقراطي. ترصد مجلة

---

[67] Ibid, P: 65-57.

[68] تعود ملكية 172 شركة من أصل 200 شركة تروج لمنتجاتها عالميًا، تعود ملكيتها الى خمس قوى عالمية هي الولايات المتحدة الاميركية، والمملكة المتحدة، وفرنسا، واليابان والمانيا. انظر:
عبد الصمد سعدون عبد الله، ***ابستمولوجيا النظام الرأسمالي: في اختلال المبادىء القيمية ما بين الطروحات النظرية والبناء التطبيقي لاقتصاديات السوق***؛ القاهرة: بحوث اقتصادية عربية، شتاء 2008، ص 126- 127.
راجع أيضًا: بيتر مارتين وهارالد شومان؛ ***فخ العولمة: الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية***- ترجمة عدنان عباس علي؛ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 238، 1998، ص 245.

الايكونويست[69] انحدارًا تاريخيًا في انخراط المجتمعات الغربية في العملية الديموقراطية. تتراجع نسبة المهتمين بممارسة حق الانتخاب (من أكثر من ثمانين بالمائة في السبعينيات الى ما دون الستين بالمائة في فرنسا مثلًا)، ويتقلص الفارق بين اليمين واليسار، وتسيطر سياسات الهوية ولا سيما في أميركا على برامج الأحزاب الكبرى، على الرغم من اعتقاد فوكوياما في مقال له نشر مؤخرًا بأنّ البعد الطبقي، عاد ليكون في أساس الاستقطاب السياسي في الولايات المتحدة الاميركية[70]. إن من دلالات صعود اليمين المتطرف في الغرب، وانتشار ظاهرة "الخواف من الاسلام" (الاسلاموفوبيا)، والتعبيرات الفجة التي يدلي بها سياسيون كبار بشأن هوية أوروبا، هو أنَّ اشتراك مجتمعات الأرض في الولاء للماركات التجارية نفسها، واستهلاك أصناف موحدة من السلع، واتباعهم الاساليب ذاتها في السفر والاقامة والثياب وعقد المؤتمرات وتبادل الهدايا وإحياء المناسبات، لم يؤد الى تقبل التعددية والتنوع. لا تزال السياسات القومية والفئوية هي المهيمنة على عقول صانعي السياسيات، ومطلقي الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

تعد قيمة التسامح مهمة بحد ذاتها، والسؤال عن أثر العولمة عليها مهم بدوره. ان مرايا الانغلاق المتعاكسة التي مثلها اليمين الغربي المتطرف من ناحية (والذي لا ينحصر بالاحزاب ذات البرامج العنصرية الوقحة) والحركات التكفيرية من ناحية ثانية يشير إلى أنَّ عولمة الاستهلاك لم يكن لها أثر في أن يتقبل بعضنا الآخر. المنابت الأصلية لداعش تعود الى إحدى أكثر البيئات الاجتماعية تمسكًا بثقافة الاستهلاك في العالم وربما في التاريخ. إن احتضان بلدان الخليج النفطية للعديد من نقاط بيع المأكولات السريعة والمشروبات ذات الخلطات السرية (ماكدونالد، ستاريكس،...) وانتشار السيارات السريعة والفارهة، والتسابق على افتتاح الفنادق فائقة الفخامة، واعتماد اللغة الانكليزية في التعليم الجامعي، لم يمنعها من أن تكون البيئة الحاضنة لانطلاق التنظيمات المتطرفة القائمة على التوحش ونبذ الآخر والانعزال التام. ولم يحل النمط الاستهلاكي في الولايات المتحدة الأميركية، بلد المنشأ، دون صعود الحس القومي المتشدد على وقع الأزمات المالية والسياسية والعسكرية المتناسلة التي تمر بها.

ومع ذلك قد يكون لوجوه العولمة الأخرى، التي لا تتصل حصرًا بالاستهلاك والتبادل النفعي، انعكاس ايجابي وموضعي على بعض القيم الليبرالية المقبولة كالتسامح. في دراسة تطبيقية، استعملت معطيات عائدة الى 66 بلدًا، وجد بيرغرن ونيلسن علاقة إيجابية بين التربية على التسامح والعولمة، التي تعزز الرغبة بنقل هذه القيمة عبر الاجيال. تصح هذه النتيجة، بحسب الدراسة على حالتي العولمة الاجتماعية والاقتصادية وليس على العولمة السياسية. وبدت العوامل الثقافية

[69] See: ***What is Gone Wrong with Democracy***; The Economist; March 1st 7th 2014.

[70] أنظر: فرانسيس فوكوياما؛ ***الانحلال السياسي الاميركي: معنى انتخابات 2016***؛ بيروت: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق الرصد الاستراتيجي، العدد الخامس؛ أيلول 2016؛ ص:17-27

الأكثر تأثيرًا من غيرها على تعزيز التسامح بين الشعوب، كما يؤدي الانفتاح التجاري دورًا مماثلًا على الصعيد الاقتصادي.[71].

لكن لنلاحظ هنا أنّ الارتدادات السلبية للعولمة على قيم التعايش العالمي لا تنشأ في كل حقل على حدة، بل تنشأ غالبًا من التفاعلات غير الحميدة بين المجالات المختلفة. فالاضطراب السياسي والحرب يغذيان الانغلاق او القطيعة الثقافيين، وفشل التجارة الحرة في تحقيق التنمية وتقريب المستويات المعيشية بين الدول يكثف موجات الهجرة التي تستفيد من الحركية العالمية التي تتيحها العولمة، لكنها تخلق ردات فعل متطرفة من قبل دول المقصد تجاه المهاجرين. ولنلاحظ أيضًا ان الانعكاس الايجابي للعولمة على قيمة التسامح في حال حصوله لن يكون آليًا، اذ لا بد وأن يستند إلى أفعال ارادية وسياسية تتجسد في أنظمة التربية والتعليم.ومن الأمثلة على ذلك، الآثار الايجابية المتوقعة لادراج اللغة العربية في جميع مراحل التعليم في الجمهورية الاسلامية الايرانية، على نظرة شعبها إلى جواره العربي، مع العلم أن العناية باللغة العربية، ليس له صلة من بعيد أو قريب بمستوى التبادل بين ايران والبلدان العربية، إنما يتعلق بالنظرة الدينية والثورية والآيديولوجية الجديدة التي أتت بها الثورة، وكفعل وحدوي مضاد للتفرق والتغريب.

تبدو العلاقة بين العولمة والتنوع أكثر تعقيدًا مما يتصور، فمن الصعب تحديد درجة التنوع الثقافي والاجتماعي، دون الخلط بين الوجهين الحقيقي والظاهري للتنوع، ولا سيما في مجتمعات الاستهلاك. هل يمكن التحقق من دلالة انتشار ماركات الثياب الغربية على الهويات العميقة للشعوب؟ وما هو الفارق بين شراء اجهزة الكومبيوتر المحمول من طراز "آبل" مثلًا من اميركا أو من الصين؟ وهل المعيار الاساسي، في اقتصاديات استهلاكية، هو السلعة (الطعام مثلًا) أم الظروف المحيطة باستهلاكها والشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تغلفها؟ هل توزيع وجبات الهامبرغر على المتحاربين في يوغوسلافيا قبل عقدين من الزمن ونيف كان سيجعلهم أكثر تقبلًا للفروقات التي تميزهم فلا تقع بعدها مجزرة سبرنيتشا[72]؟

تقلل العولمة ولا شك من الفروقات الظاهرية، وتعطي انطباعاً بالمجانسة الثقافية. لكن ذلك غير صحيح، اذًا يحيا افراد متباعدون ومتباغضون ومتباينون في شرانق استهلاكية متشابهة. والمشكلة ان التنوع يعبر عن نفسه من خلال القيم السلبية النابذة وليس بتلك الايجابية المتكاملة.

يميز بعضهم بين العولمة والتدويل Internationalization، الأولى تعني التواصل اللصيق الذي يبقى على التنوع داخل دائرة فاضلة في حين ينحو التدويل نحو حجب التمايزات. هذه الدائرة تضمن

---

[71] استخدمت الدراسة KOF Index لقياس العولمة (Dreher& al. 2008) والذي يغطي المدة 1970-2012.

See: Niclas Berggren and Threse Nilsson; ***Gbbalization and the Transmission of Social Values: The Case of Tolerances***; Sweden: Research Institute of Industrial Economics, IFN working Paper No 1007, 2014, P: 28-29.

[72] حصلت هذه المجزرة على يد وحدات "العقارب" الصربية في تموز عام 1995

الابقاء على ديناميات التنوع الثقافي مع "هدم خلاق" يخضعه لتحولات ايجابية متواصلة، تعد ضرورية للتنمية.

يخلص أنصار هذا الرأي الى أن الآثار السلبية للعولمة الاقتصادية على التنوع الثقافي مرتبطة بالتدويل اكثر منه بالعولمة. يعبر التدويل عن نفسه خصوصًا من خلال "النص" الأساسي الذي تعممه الشركات متعددة الجنسيات والتي تنشر ثقافة استهلاك قائمة على تنميط طرق العيش والقيم وتساهم في استنزاف الموارد الطبيعية[73].

يصعب التمييز بين العولمة والتدويل، خصوصًا وأن الاخير يعكس العوامل الاكثر قوة في تسيير النظام الاقتصادي- السياسي العالمي، إن القيم والآيديولوجيات الآتية من عالم الشمال هي بيئة قاتلة للتنمية في العوالم الاخرى، فيما لو قيض لها التحكم والسيطرة. يجري تسخير العلوم الاجتماعية والانسانية والتطبيقية في سبيل فرض نموذج سلوك موحد على البشر في كل مكان وزمان. إنَّ توحيد العمليات التي تقوم بها المؤسسات مثلًا لضبط الاداء الانساني وجعله اكثر كفاءة وقابلية للتحكم والتوقع (على الطراز الغربي) يدفع نحو نشوء ثقافة أحادية خانقة، والتي قد تخلق شعورًا بخسارة الهوية، أو انها تمحو البصمة الثقافية الخاصة بكل مجتمع أثناء العمل وفي لحظات الراحة والاسترخاء على قدم المساواة.

ثالثًا: هل يمكن انتاج ثقافة استهلاكية بديلة؟

كلما حاولت الثقافة المعولمة التغلغل إلى الأعماق كلما شهدت مقاومة أشد. السمات التي تكون نظرتنا الى العالم لا تزال قوية، بل إن قوة المقاومة التي تبديها الجوانب المرتبطة بالعقيدة والهوية والانتماء في وجه تمدد المجتمع الاستهلاكي الغربي، تبعث على الافتراض ان بالامكان انتاج ثقافة استهلاكية بديلة.

تقدم دراسة كريغ تومبسون عن الهوية وسياسات الاستهلاك، شواهد على معقولية هذا التصور[74] ولا سيما في المجتمعات الاسلامية، والتي يعرض فيها نتائج خمسة أبحاث قائمة على التقاطع بين سياسات وبنى الاسواق. في دراسة إيزبرك بلغن، يتبين كيف ان مزيجًا تاريخيًا من الآيديولوجيات الدينية والسياسية شجعت المستهلكين الاتراك المنتمين الى الطبقات الشعبية

[73]Maria Grazia la Spada; ***Globalization and its Effects on Diversity: Some Economic Aspects***, Messina: University of Messina, (Global Challenge Series), April 2010, P: 6-7.

[74] See: Craig J. Thompson; ***the politics of Consumer Identity work***; Journal of Consumer Research, Vol.40, No5 (February 2014), PP. III-VII. Publishd by: Oxford University Press, Dol: 10.1086/673381 Stable URl (http: www.JSTOR. org/stable/ 10.1086/673381).

والفقيرة على نبذ الاصناف والماركات العالمية (الغربية خصوصًا). ومن خلال ما أسماه الباحث بالجهاد الاستهلاكي سعى هؤلاء المستهلكون إلى بناء مجتمع ذي اسواق موجهة كي تكون متوافقة مع مثله الدينية التي تستعيد قيم العصر الاسلامي الذهبي، وهو ما لا يمكن فصله بحسب الكاتب عن المشروع السياسي الاسلامي الصاعد والباحث عن هوية ثقافية بديلة.

تتبعت دراسة أخرى سيرة الحجاب في تركيا أيضًا، الذي تخلص من كونه سمة الطبقات الريفية الدنيا، لينتشر في أوساط فئات مهنية مدينية (متوسطة الدخل)، وقد أتى ذلك في إطار تجديد الالتزام بالقيم الاسلامية، وموازنة قوى عدم الاستقرار المتمثلة في الخروج من التقاليد تماشيًا مع الحداثة.

هنا يصير الحجاب معارضًا للثقافة الذكورية المرتبطة بالاستهلاك (الذي يجعل جسد المرأة على نحو خاص سلعة او اداة ترويج) لكن ذلك لا يمنع كما تستنتج الدراسة، من نشوء نمط هجين تتكامل فيه عناصر الازياء المعاصرة داخل الزي التقليدي (يمكن النظر الى هذا الامر على انه يخلط بين الجانبين الجمالي والقيمي في السلع الاستهلاكية الحداثوية).

لا تتوافق هذه الخلاصة المشتركة التي توصلت اليها الدراستان كثيرًا مع دراسة ثالثة[75] حللت وضعية الاستهلاك في الدول الأقل نموًا، والذي يفصح بحسبها عن ثنائية اجتماعية وثقافية. فالنخبة المعولمة، التي تتمتع بمستويات عالية من رأس المال الثقافي(HCC) High Cultural Capital والعاملة في حقول متقدمة مهنيًا تكسبها القدرة على التحرك عالميًا، توجه سلوكياتها نحو ممارسات الاستهلاك الغربية، المتوافقة مع أذواق النخب في أميركا الشمالية وأوروبا، فيما ينحو الآخرون، ممن يمتلكون رأسمالًا ثقافيًا خفيضًا(LCC) Low Cultural Capital، ولديهم خيارات اقتصادية محدودة جغرافيًا، الى اعتماد ممارسات استهلاكية محلية الطابع ومقاومة لتيارات العولمة. ولا يبدو هذا التمييز موفقًا مع اكتساب ادوات العولمة خصائص شعبية عابرة للطبقات والفئات.

ان بوسع الثقافات المحلية لا سيما تلك التي تتمتع بامتدادات جغرافية كبرى كالعالم الاسلامي من انتاج بدائلها الاستهلاكية القائمة في آن معًا على تكييف ظاهر العولمة والتكيف معها، دون قطيعة تامة او اندماج كامل.

[75] Ustüner& Holt's (2010)

خلاصة

تبدو الانعكاسات الثقافية مراوغة ومليئة بالخدع والأساطير. ما زلنا في خضم التجربة وداخل مختبر التاريخ. المؤكد هو أن العولمة أوجدت فضاءً استهلاكيًا عالميًا متحولًا، يتسع جغرافيًا، ويتعمق حضوره مخترقًا المزيد من الطبقات الاجتماعية. وقد أدى تسليع المنتجات الثقافية واخضاعها لأنظمة السوق وشروط التفاعل الافتراضي، إلى زيادة نفوذ القوى الاقتصادية والتكنولوجية على عالم الابداع.

يأتي ذلك ضمن سياقات مختلفة: تتصاعد المظاهر الثقافية للعولمة باطراد فيما تتقلب مؤشراتها الاقتصادية، وتتفاعل القيم الثقافية والاقتصادية في رسم السلوك الاستهلاكي للافراد. ان صمود القيم الأساسية المرتبطة بالمكونات الجوهرية للهويات والعقائد، جعل ثقافة الاستهلاك تنتقل من التصادم مع القيم المحلية الى محاولة احتوائها واختراقها، واضعة التأثير الذي ينصب على اللاوعي محل الاقناع المتوجه إلى الوعي. وإذا كان صحيحًا ان العولمة لن تؤدي الى التجانس الثقافي بين العالم الاسلامي والغرب (على سبيل المثال)، فإنها تعرضنا في المرحلة الأولى لثنائية اجتماعية، تتغير خلالها القيم الثانوية مع بقاء الرئيسية على حالها. لكن في مراحل لاحقة يظهر الأثر اللاتزامني للصدمات التكنولوجية/الثقافية على القيم الراسخة المتصلة بالهويات والعقائد.

وإذا كانت ثقافة الاستهلاك في مرحلة ما قبل الموجة الراهنة للعولمة جزءًا من الحداثة المرتبطة بالرأسمالية الكلاسيكية، فإن المجتمع الاستهلاكي المعولم هو ظاهرة ما بعد حداثية تنتمي إلى الرأسمالية النيوليبرالية. وفي حين اكتفت الأولى باستتباع الطبقات الاجتماعية العليا القابلة للتغريب تسعى الثانية إلى اختراق كل الطبقات والثقافات بما فيها المعزولة والمنطوية على نفسها. إن هذا يضعنا أمام تحديات غير مرئية ويعيد انتاج المركزية الثقافية والسياسية الغربية، لكن على نحو يوحي بالتعددية والتنوع واللامركزية الثقافية.

لقد أخفقت كل محاولاتنا السابقة للسير ضد تيار التكنولوجيا الجارف بالتحريم والمنع، وما علينا الآن الا البحث عن البدائل من داخل هذا التيار نفسه، وبالاعتماد على أساليبه نفسها وتقمص روحه. وبقول آخر، لا يمكننا مواجهة الذيول الثقافية الخطيرة لتضخم مجتمع الاستهلاك الجديد باتباع وسائل تربوية وتعليمية تقليدية الطابع، فانعكاسات العولمة الغربية هي لا تناظرية بطبيعتها، أي أنها تستهدف الأماكن الرخوة وتتجنب الاصطدام المباشر بالقيم الصلبة والمناطق القوية مثل

العائلة والدين والتقاليد الراسخة. إن التحسب للمخاطر المترتبة على القيم بسبب انتشار ثقافة الاستهلاك، لا يُواجه بالوعظ والارشاد ولا بالتقوقع والانغلاق، بل بتصحيح عوامل الضعف والوهن البنيوية التي تتسرب من خلالها آفات العولمة والتغريب، وهذا على صعد السلوك ونظم الاعتقاد وفي أساليب الانتاج ومستويات الدخل، وليس لنا من سبيل آخر لاسترداد الثقة بالنفس وتسهيل اندماجنا الحميد والآمن بالعالم بعد طول انحطاط.

المصادر والمراجع

باللغة العربية

أولريش شيفر؛ ***انهيار الرأسمالية..أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود***؛ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 371؛ يناير 2010.

بيتر مارتين وهارالد شومان، ***فخ العولمة: الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية***- ترجمة عدنان عباس علي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 238، 1998.

توماس بكيتي؛ ***رأس المال في القرن الواحد والعشرين***؛ القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر؛ الطبعة الأولى، 2016.

جان بودريار؛ ***المجتمع الاستهلاكي: دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراتبيته***-ترجمة وتحقيق: خليل أحمد خليل؛ بيروت: دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1995.

جورج قرم؛ **تاريخ اوروبا وبناء أسطورة الغرب-ترجمة** د.رولى ذبيان؛ بيروت: دار الفارابي، الطبعة الأول، 2011.

جون كينيث غالبريث؛ ***تاريخ الفكر الاقتصادي..الماضي صورة الخاصر***-ترجمة أحمد بلبع؛ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 261؛ سبتمبر 2000.

جون توملينسون، ***العولمة والثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان***، ترجمة د. إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة 354 اغسطس 2008.

جيمس جوردون فينليسون؛ ***يورغن هابرماس مقدمة قصيرة جدًا***-ترجمة أحمد محمد الروبي؛ القاهرة: مؤسسة هنداوي لتعليم والثقافة؛ الطبعة الأولى؛ 2015.

ديفيد هارفي؛ ***حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التغيير الثقافي***-ترجمة محد شيّا؛ بيروت: المنظمة العربية للترجمة والمعهد العالي العربي للترجمة؛ الطبعة الأولى؛ أيار 2005.

عبد الحليم فضل الله؛ ***علاقة المواطن بالسلطة في العصر الرقمي***؛ ورقة عمل قدمت إلى مؤتمر: التحاور، الشفافية ،الديموقراطية، المشاركة المدنية والسياسية في العصر الرقمي؛ تنظيم مركز "علوم التواصل والانسان" ومنظمة الاونيسكو، جبيل: 4-8/تشرين ثان/2013.

عبد الصمد سعدون عبد الله، ***ابستمولوجيا النظام الرأسمالي: في اختلال المبادىء القيمية ما بين الطروحات النظرية والبناء التطبيقي لاقتصاديات السوق***، القاهرة: بحوث اقتصادية عربية، شتاء 2008.

فرانسيس فوكوياما؛ ***الانحلال السياسي الاميركي: معنى انتخابات 2016***؛ بيروت: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق؛ الرصد الاستراتيجي، العدد الخامس؛ أيلول 2016.

محمد محسن؛ ***الاستراتيجية الاعلامية لداعش: الخطاب والقدرات والوسائل***؛ ورقة في مؤتمر: جماعات العنف التكفيري: الجذور، البنى والعوامل المؤثرة؛ تنظيم: المركز الاسشاري للدراسات والتوثيق ومركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي؛ بيروت:9-10 أيلول 2015.

محمد علوش؛ ***وسائل الاعلام العربية والغربية وموقعها من التنظيمات الدينية المتطرفة***؛ ورقة في مؤتمر: جماعات العنف التكفيري: الجذور، البنى والعوامل المؤثرة؛ تنظيم: المركز الاسشاري للدراسات والتوثيق ومركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي؛ بيروت:9-10 أيلول 2015.

نيال فيرغسون، ***الحضارة.. كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟***؛ بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، 2014.

هيرييت بيتشر ستاو؛ ***كوخ العم توم***–ترجمة ميخائيل حداد؛ عمان: الاهلية للنشر والتوزيع؛ ط2؛ 2013.

يورغن هابرمس؛ ***الحداثة وخطابها السياسي***-ترجمة جورج تامر، بيروت: دار النهار للنشر، الطبعة الأولى، 2002.

اسلام السقا؛ ***داعش: هوليود الخلافة***؛ جريدة الاخبار، العدد 2511، الخميس 5 شباط 2015.

زياد منى؛ ***جورج بويكف مفككاً الاولمبياد: ملعب الرأسمالية الاحتفالية***؛ جريدة الاخبار، العدد2963؛ الجمعة 19 آب 2016.

باللغة الاجنبية

Amartya Sen***; L'economie est une science morale*** ; Paris: La Decouverte, 2003.

Craig J. Thompson; ***the politics of Consumer Identity work***; Journal of Consumer Research, Vol.40, No5 (February 2014), PP. III-VII. Publishd by: Oxford University Press, Dol: 10.1086/673381 Stable URl (http: www.JSTOR. org/stable/ 10.1086/673381).

Eric J. Arnould and Craig J. Thompson; ***Consumer Culture Theory CCC: Twenty Years of Research***; Journal of Consumer Research, Vol.31, No.4, March 2005, PP:868-882.

Francois Bourguignon; ***Inequality and Globalization.How Rich Get Richer as the Poor Catch up***; Foreign Affairs, Vol.95, no 1, January/February 2016, PP 11-15.

Lowerence E. Rothenberg; ***the Three Tensions of Globalization***; Occasional Papers from the American Forum for Global Education; No.176;2002-2003.

Maria Grazia la Spada; ***Globalization and its Effects on Diversity: Some Economic Aspects***, Messina: University of Messina, (Global Challenge Series), April 2010, P: 6-7.

Marwan M. Kraidy, ***Globalization of CultireThrough the Media***; Pennsylvania: University of Pennsylvanian; (Kraidy, M. (2002), Globalization of Cultire through the Media. In J.R. Schemart (Ed); Encyclopedia of Communication and Information (Vol. 2, PP 359-363). New York, NY: Macmillan, Retrived from hltp// Repository Upenn. Edu/ asc- Papers/325

Niclas Berggren and Threse Nilsson; ***Globalization and the Transmission of Social Values: The Case of Tolerances;*** Sweden: Research Institute of Industrial Economics, IFN working Paper No 1007, 2014.

Nigel Hollis; ***Cultural Clash: Globalization Does not Imply Homogenization***, Millward Brown's Pov. May 2009

Ronald Inglehart; ***Inequality and Modernization.Why Equality Likely to Comeback***; Foreign Affairs, Vol.95, no 1, January/February 2016, PP2-10.

Scott Lash & John Urry; ***Economies of Signs and Spaces***; London: SAGE Publications, 2002***Globalization and C***ulture, Cato Policy Report, May/ June 2003. PP:8-16.

Urzula Swadzba; ***the Impact of Globalization on the Traditional Value System; in the Scale of Globalization***; Osrtava: University of Ostrava; pp:332-337.

Yingqin Liu; ***Exploring the Impacts of Cultural Globalization on Cultural Awareness. Values and English Writing in Chinese Context***; USA: Cameron University, Intercultural Communication Studies XXI: 2 (2012)

Zhang, Y.B., & Harwood, J, (2004); ***Modernization and Tradition in an Age Globalization: Cultural Values in Chinese Television***; Commercialism Journal of Communication 54, PP: 56-172.

What is Gone Wrong with Democracy; The Economist; March 1st 7th 2014.

Pew 2007 ***global Altitudes Project***;http://www.pewglobal.org/

www. ***Albertkhan***. Co.uk/

www.***bain.***com